أسئلة مشكلة في القدر
كتبه: أبو عبد الله
محمد أنور مرسال
النسخة الأولى

أَسْئِلَة مُشْكِلَة في القَدَر

كتبه: أبو عبد الله

محمد أنور محمد مرسال

((إهداء)):

أ ـ إهداء إلى روح والدتي ووالدي (رحمهما الله):

أسأل الله أن يرضى عنكما، وأن يجمعني بكما في جنة الفردوس.

ب ـ إهداء إلى كل مشايخي الذين لهم الفضل عليَّ، أقول لهم جميعًا:

جزاكم الله عني خير الجزاء؛ فقد علمتموني عقيدة السلف الصافية في باب القدر؛ فلكم مِنَّةٌ في عنقي لا أستطيع الوفاء بها، أسأل الله أن يجازيكم بها عني، وأن يرضى عنكم جميعًا، وكفى بالله وكيلًا.

ج ـ إهداء إلى زوجتي الغالية أقول لك:

جزاك الله عني خيرًا.

د ـ إهداء إلى كل إخواني وأقراني الذين عشت معهم خير الأوقات في طلب العلم:

أُشهد الله أني أحبكم في الله، جمعنا الله بهذه المحبة في ظل عرشه يوم لا ظلَّ إلا ظله!

مقدمة المصنف ((عفا الله عنه)):

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بيده: الإيجاد والإنشاء، والإماتة والإحياء، والإعادة والإبداء، والإنعام والآلاء، والعافية والبلاء، عالم السر والجهر، وقاصم الجبابرة بالعز والقهر[1].

الحمد لله العلي الكبير، العليم الخبير، مُقَدِّر المقادير، قَدَّر مَقَادِير الخلائق، فلم يُبْقِ ولم يَذَر، وكل شيء عنده بِقَدَر، أجْرَى مقاديره على كل شيء حتى الريح والمطر، وحتى على غرز الإبر.

الحمد لله الذي عاقب المكذبين بالقدر، وجعلهم عبرة لمن اعتبر، وآية لكل البشر، ومَن تاب منهم صفح عنه وغفر.

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدَّره، وأثبت في أم الكتاب ما أراده وسطره، فلا مؤخِّر لما قدمه، ولا مقدِّم لما أخره.

([1]) ـ وهذا الكلام للإمام لابن الجوزي -رحمه الله- من كتابه (التبصرة).

الحمد لله الذي جعل مَن آمن بالقدر يعيش في صفو بعيدًا عن الكَدَر، ومَن أعمل عقله فيه وقدمه على الخبر ضل وأضل وضاع عمره في هَدْر، وغرق في الأوهام والظنون، وعاش عمره وهو مغبون.

فسبحان مَن أَمْرُه بين الكاف والنون، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له: كن فيكون، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

وأشهد أن لا إله إلا الله، لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ النبي الكريم، والرسول الأمين، الذى أدى أمانته، وبلغ رسالته، واختزل دعوته شفاعةً لأمته، أرشدنا إلى طريق الهداية، وحذرنا من طريق الظلمات والغواية.

حذر الأمة من طريق القدرية ومآلهم[1]، وبيَّن أنهم من شر البرية، ونهى أمته عن الضلال في القدر، وحذرها من ذلك أشد الحذر.

صلوات ربي وسلامه عليه، أما بعد:

([1]) ـ وقد ورد في الباب أحاديث، وهي أحاديث مُختلَف فيها، من العلماء مَن ضعفها مطلقًا، ومنهم مَن حسن بعضها، ومنها: ((سيكون في أمتي أقوام يكذبون بالقدر)) رواه أحمد (5639)، وأبو داود (4613). ومنها: ((القدرية مجوس هذه الأمة .....)) رواه أحمد (5584)، وأبو داود (4691).

فقد امتن الله ﷻ على عبده الفقير بشرح "باب القدر" وكان آخر فصل في هذا الشرح بعنوان: ((أسئلة مُشكِلَة في القدر)) جمعتُ فيه بعض الأسئلة المشكلة في باب القدر، فأشار عليَّ بعض الأحباب أن أجمعها في كتاب منفصل، فقام بعض إخواني الأفاضل بتفريغها، فجزاهم الله عنا خير الجزاء، وقد قسمتُها إلى أسئلة على ما يلي:

السؤال الأول: ((هل يُنسب الشر إلى الله ﷻ ؟))

السؤال الثاني: ((ما الحكمة من تقدير المعاصي والذنوب ؟))

السؤال الثالث: ((ما الحكمة من تقدير البلاء ؟))

السؤال الرابع: ((كيف[1] يكون في ملك الله ما لا يحبه الله ؟))

السؤال الخامس: ((هل الإنسان مُسيَّر أو مُخيَّر ؟))

السؤال السادس:

((هل الإيمان بالقدر يتعارض مع كون الإنسان صاحب مشيئة ؟))

([1]) ـ نذكر السؤال بصيغة (كيف) على سبيل التعليم، وإلا فالأصل: ((لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون)).

السؤال السابع: ((ما الحكمة من وجود الكفر ؟))

السؤال الثامن: ((ما الحكمة من وجود إبليس وهو رأس الشر ؟))

السؤال التاسع: ((هل القدر السابق يقتضى ترك العمل ؟))

السؤال العاشر:

((هل يسوغ الاحتجاج بالقدر على الكفر والمعاصي والتقصير ؟))

السؤال الحادي عشر: ((احتجاج آدم ﷺ وموسى ﷺ))

السؤال الثاني عشر: ((إذا كان الله ﷻ أراد وقَدَّر وكتب المقادير وأعمال الناس، ففيم يعذبهم وقَد قَدَّر عليهم أعمالهم التي يُعذَّبون عليها؟!))

وقد سميته: ((أسئلة مُشْكِلَة في القَدَر))

((فإن يكُ صوابٌ فمن الله، وإن يَكُ خطأٌ فمني ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان)) [1]

([1]) ـ **صحيح:** وهو من كلام ابن مسعود رضي الله عنه: رواه أبو داود (2116)، وورد نحوه عن الصِّدِّيق

ورحم الله مَن بصرني بعيبي؛ إذ ((الدين النصيحة)) [1]،

((والمؤمن مرآة المؤمن)) [2].

هذا، وأسأل الله أنْ يوفقني، ويُنْعِم على عبده المسكين بالوصول إلى مراده ﷻ، وأن يجعل هذا المبحث خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعني به والمسلمين؛ إنه جواد كريم، وهو بالإجابة كفيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصلِ اللهم وسلم وبارك على محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه : أبو عبد الله السكندري المصري

محمد أنور محمد مرسال

الاثنين / الثالث من شهر رجب (1442 هـ)

الموافق: 15 / فبراير/ 2021 م

([1]) ـ رواه مسلم (55)، وأبو داود (4944)، وغيرهما.

([2]) ـ حسن: رواه البخاري في (الأدب المفرد) (238).

تمهيد

باب القدر دَحْضُ مَزلَّة، فكم زلت فيه أقدام، وتحيرت فيه أفهام، وضل مَن ضل فيه من الأنام، ومَن رام وأراد الدخول في هذا الباب فحتمًا ولا بد أن يتحلى بأمور، هي له جُنَّة ووقاية من الزلل والخلل، ومن هذه الأمور:

أولًا: ((الله لا يُسأَل عما يفعل ﷻ)):

الله ﷻ لا يُسأل عما يفعل؛ فالخلق خلقه، والملك مُلكه، يفعل ما يشاء ﷻ قال الله ﷻ: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ {الأنبياء:23}

يقول الإمام ابن جرير الطبري في تفسيره لهذه الآية:

((لَا سَائِلَ يَسْأَلُ رَبَّ الْعَرْشِ عَنِ الَّذِي يَفْعَلُ بِخَلْقِهِ مِنْ تَصْرِيفِهِمْ فِيمَا شَاءَ مِنْ: حَيَاةٍ، وَمَوْتٍ، وَإِعْزَازٍ، وَإِذْلَالٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ حُكْمِهِ فِيهِمْ؛ لِأَنَّهُمْ خَلْقُهُ وَعَبِيدُهُ، وَجَمِيعُهُمْ فِي مِلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَالْحُكْمُ حُكْمُهُ، وَالْقَضَاءُ قَضَاؤُهُ، لَا شَيْءَ فَوْقَهُ يَسْأَلُهُ عَمَّا يَفْعَلُ، فَيَقُولُ لَهُ: لِمَ فَعَلْتَ ؟ وَلِمَ لَمْ تَفْعَلْ ؟

﴿ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ يَقُولُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: وَجَمِيعُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ

عِبَادِهِ مَسْئُولُونَ عَنْ أَفْعَالِهِمْ، وَمُحَاسَبُونَ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي يَسْأَلُهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَيُحَاسِبُهُمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ فَوْقَهُمْ وَمَالِكُهُمْ، وَهُمْ فِي سُلْطَانِهِ ...)) [1].

ثانيًا: ((التوقيف)):

باب القدر هو باب توقيفي، ومَن دخل في باب القدر لا بد أن يسير خلف الدليل: يستدل ثم يعتقد، فمدار الاعتقاد في القدر التوقيف السمعي.

قال أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ:

((سَبِيلُ مَعْرِفَةِ هَذَا الْبَابِ التَّوْقِيفُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دُونَ مَحْضِ الْقِيَاسِ وَالْعَقْلِ، فَمَنْ عَدَلَ عَنِ التَّوْقِيفِ فِيهِ ضَلَّ وَتَاهَ فِي بِحَارِ الْحِيرَةِ، وَلَمْ يَبْلُغْ شِفَاءَ الْعَيْنِ، وَلَا مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ الْقَلْبُ؛ لِأَنَّ الْقَدَرَ سِرٌّ مِنْ أَسْرَارِ اللَّهِ تَعَالَى، اخْتُصَّ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ بِهِ، وَضَرَبَ دُونَهُ الْأَسْتَارَ، وَحَجَبَهُ عَنْ عُقُولِ الْخَلْقِ وَمَعَارِفِهِمْ لِمَا عَلِمَهُ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَلَمْ يَعْلَمْهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَقِيلَ: إِنَّ سِرَّ الْقَدَرِ يَنْكَشِفُ لَهُمْ إِذَا دَخَلُوا الْجَنَّةَ، وَلَا يَنْكَشِفُ لَهُمْ قَبْلَ دُخُولِهَا)) [2].

([1]) ـ تفسير الطبري (8 / 20) ط (دار الحديث) القاهرة.

([2]) ـ شرح النووي على صحيح مسلم (8 / 450) تحت الحديث رقم (2648) ط (دار أبي حيان) فتح الباري، ابن حجر (11 / 561) مقدمة كتاب القدر، رقم كتاب القدر (82)

ثالثًا: ((التسليم التام)):

فمسائل القدر فيها بعض المسائل التي قد تُشْكل، ويقذف الشيطان في قلب الإنسان الوساوس والشبهات؛ فلا بد في الباب من التسليم التام.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ:

((وَمن السّنة اللَّازِمَة الَّتِي مَن ترك مِنْهَا خصْلَة لم يقبلهَا ويؤمن بهَا، لم يكن من أَهلهَا: الْإِيمَان بِالْقدرِ خَيره وشره، والتصديق بالأحاديث فِيهِ وَالْإِيمَان بهَا، لَا يُقَال: لم؟ وَلَا: كَيفَ؟

إِنَّمَا هُوَ التَّصْدِيق وَالْإِيمَان بهَا، وَمن لم يعرف تَفْسِير الحَدِيث ويبلغه عقله، فقد كُفي ذَلِك، وَأُحكِم لَهُ، فَعَلَيهِ الْإِيمَان بِهِ وَالتَّسْلِيم)) [1].

رابعًا: ((استحضار أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يظلم الناس شيئًا)):

ينبغي ولا بد للمسلم فى أبواب القدر أن يستحضر المسلم عدل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التام

ط (دار الحديث القاهرة).

([1]) ـ أصول السنة، للإمام أحمد بن حنبل (صـ 37 ، 38) ط (دار السلام) القاهرة.

وكمال أفعاله ﷻ وأنه لا يظلم الناس شيئًا؛ لكمال عدله ﷻ كما قال ﷻ:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {النحل:118}

قال الله ﷻ:﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {النحل:33}

قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ {النساء:40}

قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {يونس:44}

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ {الزخرف:76}

خامسًا: ((استحضار أن الله ﷻ لا يفعل الأشياء إلا لحكمة عظيمة)):

الله ﷻ لا يفعل الأشياء إلا لحكمة عظيمة، ولا يقدر المقادير إلا لحِكم جليلة، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها، وهذه المعرفة الإجمالية فى مسألة الحكمة تكفيك.

سادسًا: ((استحضار العبودية لله ﷻ)):

فعند الكلام في باب القدر: ينبغي على المسلم أن يستحضر عبوديته لله ﷻ وأنَّ يعرف قدْر نفسه: بأنه عبد مربوب لخالقه، ومولاه مُقدِّر المقادير، وهو على كل شيء قدير، وفعال لما يريد؛ فيقف العبد المربوب المخلوق عند حدوده، ويعرف قدْر خالقه ومولاه ﷻ

سادسًا: ((الالتزام بفهم الصحابة وأهل السنة والسير على أصولهم)):

وهذا من أهم الأمور في باب القدر: ((**الالتزام بفهم الصحابة** ﷺ))

لأنهم ﷺ أعلم الأمة بنصوص الكتاب والسنة، وأحرصها على الخير، وأعظمها اتباعًا للنبي ﷺ، وقد تعلموا من رسول الله ﷺ مباشرة، ونزل بينهم القرآن، وقد عدلهم الله ﷻ وعدلهم رسوله ﷺ

وكذلك ((**الالتزام بفهم أهل السنة والجماعة رحمهم الله**))

لأنهم اتبعوا الصحابة ﷺ بإحسان، وساروا على دَرْبهم، واقتفوا أثرهم في فهم هذا الباب.

فإذا أردت أخي الحبيب _ رحمنا الله وإياك _ أن تتعلم باب القدر، فعليك بهذه الأمور التي ذكرتُها لك؛ فهي جُنَّة ووقاية من الانحراف في هذا الباب الذي زلت فيه أقدام، وضلت فيه أفهام، والمعصوم مَن عصمه الله ﷻ.

وبالله التوفيق ...

((السؤال الأول)):

هل يُنْسب الشر إلى الله ﷻ ؟

قبل الدخول فى غمار هذا السؤال، هناك أصول عقيدية مهمة لا بد أن يعتقدها المسلم، ويستحضرها، حيال هذا السؤال، ومنها:

((الأصل الأول)):

((أفعال الله ﷻ بلغت الغاية فى الكمال والحسن))

الله ﷻ له الكمال المطلق: فله الأسماء الحسنى [1]، وله الصفات العُلا الحسنى [2]، وأفعال الله ﷻ حُسنى بلغت الغاية في الكمال والحسن، وهى كمال مطلق؛ لأنها تدور بين الفضل والعدل [3].

---

(1) ـ كما قال تعالى: ((وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ)) {الأعراف:180}

كما قال تعالى: ((اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ)) {طه: 8}.

(2) ـ كما قال تعالى: ((وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ)) { النحل:60} على وجه من وجوه التفسير:

أن معنى المثل الأعلى: الوصف الأعلى

(3) ـ كما قال تعالى: ((الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ)) {السَّجْدَةِ: 7}

وَقَالَ: ((صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)) { النَّمْلِ: 88}

هذا هو الأصل الأول: ((أفعال الله ﷻ بلغت الغاية فى الكمال والحسن))

((الأصل الثانى)):

((أفعال الله ﷻ يفعلها لحِكم عظيمة))

إذا قلنا أنَّ أفعال الله ﷻ حُسنى، فما من فعلٍ يفعله ربنا ﷻ إلا وفَعَله **لحِكمة عظيمة** جليلة، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها، كما دلت عليه النصوص الكثيرة [1] مما سبق ذِكرها [2].

([1]) ـ ومن هذه الدلائل:

أ ـ قوله تعالى: ((وَمَن يُؤْتَ **الْحِكْمَةَ** فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)) {البقرة:269}

وجه الاستدلال: واهب الكمال أَوْلى به ﷻ

ب ـ آيات فيها التعليل بصوره كما قال تعالى: ((رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ **لِئَلَّا** يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا **حَكِيمًا**)) {النساء:165}

وجه الاستدلال: ((**لِئَلَّا**)) هذه لام التعليل، واعلم أنه قد وردت في القرآن آيات كثيرة بلام التعليل على وَفق هذا المنوال، وقد تأتي بصيغة أخرى، ومنه قوله تعالى: ((مِنْ **أَجْلِ ذَٰلِكَ** كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .....)) { المائدة:32} وغير ذلك من النصوص الكثيرة في الباب.

([2]) ـ وسبق وتكلمنا عن مسألة الحكمة والتعليل في أفعال الله ﷻ وبيَّنَّا ـ بحول الله ـ مذهب أهل السنة والطوائف المخالفة في مبحث مستقل في كتاب: ((المختصر في مباحث القدر)) وهذه الأسئلة في هذا المبحث هي الفصل الأخير من الكتاب، يسر الله نشره.

((الأصل الثالث)):

((الشر ينقسم إلى قسمين: شر محض، وشر نسبي))

اعلم ـــ رحمنا الله وإياك ـــ أنَّ الشر ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شر محض لا خير فيه قط.

القسم الثانى : شر نسبى، يعنى: شر من وجه وخير من وجه.

نعود إلى السؤال: هل يجوز أن ننسب الشر إلى الله تبارك وتعالى ؟

بناءً على الأصول التى ذكرناها: فالشرور التى وُجدت منذ بدء الخليقة إنما جُعلت لحكمة، وكما قلنا: الشر ينقسم إلى قسمين: شر محض لا خير فيه قط، وشر نسبى: هو شر من وجه وخير من وجه آخر.

((سؤال)):

كيف يكون الشر فيه خير ؟

((الجواب)):

هناك أمثلة كثيرة على ذلك، ومنها:

((المثال الأول)):

((**البَلاء**)): البلاء شر، لكن هل هو شر نسبي أو شر محض ؟

((الجواب)):

هو شَر من وجه، وخير من وجه.

((**هو شَر من وَجْه**)) فالبلاء شر للمُبتَلَى من جهه الآلام والأحزان وما شابه ذلك.

((**وخير من وجه**)): البلاء خير من وَجْه آخر: فبه تُرفع الدرجات، وتُكفر السيئات، وبه تكون العِبَر والعِظَات.

((المثال الثانى)):

((**قَطْع يد السارق**)): هذا بلا شك فيه شر لمن قُطعت يده، لكن هو خير بالنسبة للناس؛ لما فيه من حِفظ أموالهم، ولما فى ذلك من ردع الذين يتجرؤون على أموال الناس.

((المثال الثالث)):

((**خلق إبليس**)): وجود إبليس هو شر، ولكن يترتب على هذا الشر خير: كمجاهدة النفس، وتثقيل موازين المؤمنين، فضلًا عن اختبار العباد، ومعرفة مَن الصادق المِطْوَاع لله، ومَنْ الكاذب المُتَبِع لشيطانه وهواه.... إلخ.

((خلاصة الكلام)):

ربنا ﷻ لم يخلق شرًا محضًا، وإنما ربنا ﷻ إذا خلق يخلق ﷻ ما فيه الخير وما فيه الشر.

نعود إلى السؤال:

هل يجوز أن ننسب الشر إلى الله تبارك وتعالى ؟

اعلم أخي الحبيب ــ رحمنا الله وإياك ــ أنَّ مردَّ هذه المسألة يتعلق ببعض الأدلة التى ظاهرُها التعارض فى هذه الباب.

فهناك أدلة تثبت أن من القدر ما هو خير ومنه ما هو شر، وهناك أدلة تنفي الشر عن الله ﷻ.

((أولًا)): أدلة فيها إثبات الشر في القدر:

والأدلة في هذا الباب تنقسم إلى قسمين:

أ ـ أدلة خاصة.

ب ـ أدلة عامة.

أ ـ الأدلة الخاصة، ومنها:

((الدليل الأول)):

قال الله تبارك وتعالى فى قصة نوح ﷺ:

﴿ لَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ {هود:34}

وجه الاستدلال:

إثبات الإغواء في تقدير الله، وهو شر.

((الدليل الثانى)):

حديث جبريل -كما فى الصحيح- عندما سأله جبريل عن الإيمان حيث

قال: أخبرني عنِ الإيمانِ، قالَ:

((الإيمانُ أن تُؤْمِنَ باللَّهِ وملائِكَتِهِ وَكُتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ ، والقدرِ كلِّهِ خيرِهِ وشرِّهِ)) [1].

وجه الاستدلال:

قوله: ((خيره وشره))، وهذا فيه تصريح بأن القدر فيه الشر.

((الدليل الثالث)):

عَبْدُ اللهِ بنُ عُمَرَ يقولُ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

((كُلُّ شيءٍ بقَدَرٍ، حتَّى العَجْزِ وَالْكَيْسِ -أَوِ: الكَيْسِ وَالْعَجْزِ-)) [2]

العجز: هو عدم القدرة، وقيل: هو ترْك ما يجب فِعله بالتسويف.

الكيس: هو: ضد العجز، أي: النشاط والحنك فى الأمور والعقل فى الأمور.

---

(1) ـ رواه أحمد (367)، مسلم (8)، وأبو داود (4695)، والترمذي (2610)، والنسائي (4990)، وابن ماجه (63)، وهذا لفظ أحمد.

(2) ـ رواه مسلم (2655).

وجه الاستدلال: أنَّ العجز من الشر.

برهان ذلك:

أنَّ النبي ﷺ كان يستعيذ من العجز: كما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه

قال: كان رسول الله ﷺ يقول:

((اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك من: العجزِ، والكسلِ، والجبنِ، والبخلِ، والهرمِ، والقسوةِ [1]، والغفلةِ [2]، والعيْلةِ [3]، والذلةِ [4]، والمسكنةِ [5]، وأعوذُ بك من: الفقرِ، والكفرِ، والفسوقِ، والشقاقِ [6]، والنفاقِ [7]،

([1]) ـ هي: غلظة القلب، وأن يتصف الإنسان بأنه قاسي القلب لا ينتفع بالموعظة، ولا يرحم مَن يستحق الرحمة.

([2]) ـ هي: غياب الشيء عن بال الإنسان، وعدم ذِكره.

([3]) ـ هي: الفقر.

([4]) ـ هي: الهوان على الناس، وأن ينظروا إلى الإنسان بعين الاحتقار والاستخفاف به.

([5]) ـ هي: قلة المال وسوء الأحوال.

([6]) ـ مخالفة الحق.

([7]) ـ أن يُظهِر الإنسان خلاف ما يُبطِن، وهو قسمان: نفاق أكبر: وهو النفاق الاعتقادي، وهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، ومنه الأصغر: وهو النفاق العملي.

والسمعةِ [1]، والرياءِ [2]، وأعوذُ بك من الصممِ [3]، والبُكمِ [4]، والجنونِ [5]، والجُذامِ [6]، والبَرَصِ [7] ، وسيِّئِ الأسقامِ)) [8].

وجه الاستدلال:

أن هذه الأمور التي استعاذ منها النبي ﷺ -ك (العجزِ، والكسلِ، والذلةِ والقسوةِ، والغفلةِ، والعيْلةِ، والمسكنةِ، والكفرِ، والفسوقِ، والشقاقِ، والنفاقِ، والسمعةِ، والرياء، والبُكمِ، والجنونِ، والجُذامِ، والبَرَصِ، وسيِّئِ الأسقامِ)- شر، وهي من تقدير الله ﷻ

([1]) ـ أن يعمل العمل خفية، ثم يُنوِّه بالعمل؛ ليسمعه الناس.

([2]) ـ إظهار العبادة؛ ليراها الناس، فيحمدوه.

([3]) ـ انسداد الأذن وثقل السمع.

([4]) ـ وهو: الخرس وعدم القدرة على الكلام.

([5]) ـ فقدان العقل وعدم التمييز.

([6]) ـ تآكل أطراف الأعضاء شيئًا فشيئًا، وربما يفقد صاحبه الشعور بها، وهو مرض يصيب بالعدوى.

([7]) ـ البَرَصُ هو: بياض يظهر على الجلد كبقع، ثم ينتشر في باقي الجلد حتى يعمَّه؛ بسبب انحباس الدم في الجلد، وهو داء يستقذره الناس ويسبب آلامًا نفسية للمريض.

([8]) ـ صحيح: رواه الحاكم (1944)، والبيهقي في الدعوات الكبير (348)، والطبراني في الصغير (316).

((الدليل الرابع)):

قال الله ﷻ:

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ {يونس:107}

وجه الاستدلال:

أنَّ ما يصيب الإنسان من الخير والضرر، فهو بتقدير الله ﷻ وهذا يدل على أن قدر الله فيه الشر؛ لأن الضرر شر.

ب ـ الأدلة العامة، ومنها:

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ { القمر:49}

وجه الاستدلال:

((كُلَّ شَيْءٍ)) "كل" من صيغ العموم، فتشمل الخير والشر.

_ فهذه أدلة فيها أن تقدير الله ﷻ فيه الخير والشر، وهناك أدلة فيها نَفْي الشر عن الله.

((ثانيًا)): أدلة فيها نفي الشر عن الله ﷻ، ومنها:

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان إذا استَفتَح الصَّلاةَ يُكبِّرُ، ثُم يقولُ:

((.... لبَّيْكَ وسَعدَيْكَ، والخَيرُ كلُّه في يدَيْكَ، والشَّرُّ ليس إليكَ، أنا بكَ وإليكَ، تبارَكْتَ وتعالَيْتَ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ)) [1].

وجه الاستدلال:

التصريح بنفي الشر عن الله ﷻ

وبسبب تعارض النصوص ــ في الظاهر ــ اختلفت مسالك الناس في الجواب عن هذا السؤال:

هل يجوز أن ننسب الشر إلى الله تبارك وتعالى ؟

اعلم أنَّ العلماء ــ رحمهم الله ــ لهم مسالك مع هذه النصوص فى هذه

([1]) ـ رواه أحمد (803)، ومسلم (771)، وأبو داود (760)، والترمذي (3421)، والنسائي (897)، وهذا لفظ أحمد.

المسألة؛ فإنهم يقولون أنَّ الله ﷻ خلق الخير والشر، وإنما الإشكال سيكون في نفي نسبة الشر عن الله ﷻ ((والشر ليس إليك)).

وهل النفي نفيٌ لخلق الشر أو ماذا ؟

وقبل أن نذكر هذه المسالك هناك مسلك آخر، وهو مسلك القدرية.

مسلك القدرية في المسألة:

اعلم أن القدرية ينقسمون إلى طوائف ثلاث:

((الطائفة الأولى)):

القدرية الأوائل (غلاة القدرية) [1]، وهم الذين ينفون عن الله العلم بأفعال العباد وكذلك الخلق.

---

[1]- **الطائفة الأولى: غلاة القدرية (القدرية الأوائل أو المجوسية)**

وهم الذين ينفون عن الله العلم (علم ما سيفعله العباد) والخلق (خلق أفعال العباد) فهم ينســـبون القدر إلى العبد (أى أن العبد هو الذى يخلق أفعاله) وينفونه عن الرب (أى: ينفون خلق الله لأفعال العبد –تعالى الله عن ذلك–) ويقولون أن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد الا بعد وقوعها، وقد سُموا بالمجوسية؛ لأنَّ طائفة منهم =

= يقولون أن أفعال الخير خلقها الله، وأما أفعال الشـــر: فخلقها العبد، فشـــابهوا المجوس الذين يقولون أن هناك إلهًا للخير وإلهًا للشر.

ظهرت القدرية فى أواخر عهد الصـــحابة في زمن الفتنة بين ابن الزبير رضي الله عنه وبنى أمية سنة (70) هـ؛ فغلاة القدرية ينكرون علم الله المتقدم ومشيئته السابقة، ويقولون أن الله تعالى أمر ونهى، وهو لا يعلم مَن سـيطيعه ممن سـيعصـيه، ويقولون أن الأمر أُنُف – أى: مُســـتأنَف – فنفوا عن الله العلم والخلق، والله تعالى يقول: ((وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ)) {الصافات:96}

حكمهم: وهم كفار نوعًا وعينًا، ولا يحتاجون لإقامة الحجة؛ لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة؛ فمَن وصف الله سبحانه وتعالى بالجهل لا يحتاج لإقامة الحجة.

أقوال الأئمة فيهم: قال ابن عباس: ((كلام القدرية كفر))

ابن عمر ((لعنهم، وتبرأ منهم)) كما فى الصحيح في مطلع حديث جبريل، والتبرؤ يعني: الخروج من الملة

وقال: ((لو برزت لى القدرية فى صعيد واحد لضربتُ رقابهم))

قيل لعليٍّ: إن هاهنا رجلاً يتكلم فى المشيئة، فقال: ((يا عبد الله، خلقك الله إذا شاء أم إذا شئت ؟ فقال: إذا شاء، قال: ويمرضك إذا شاء أم إذا شئت ؟ فقال: إذا شاء، قال: ويشفيك إذا شاء أم إذا شئت ؟ فقال: إذا شاء، قال: ويميتك إذا شاء أم إذا شئت ؟ فقال: إذا شاء، قال: ويدخلك حيث شاء أم حيث شئت ؟ فقال: حيث شاء، قَالَ: وَاللَّهِ لَوْ قُلْتَ غَيْرَ هَذَا لَضَرَبْتُ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاكَ بِالسَّيْفِ، قَالَ: ثُمَّ تَلَا: ﴿ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾{المدثر: 56}

قال الحسن البصرى: ((مَن كذَّب بالقدر فقد كذب بالحق – أى: القرآن –)) =

يقولون: أنَّ الله ما علم وما خلق شيئًا من أعمال العباد [1].

فهم ينفون خلق الله للخير والشر، مع نفيهم للعلم _علم الله لأعمال العباد_.

((الطائفة الثانية)):

القدرية المتأخرون [2]:

= **قال نافع**: ((يُستتابون وإلا قُتلوا)) وورد مثله عن **عمر بن عبد العزيز**

رجاء بن حيوة: أفتى رجاء بن حيوة بقتلهم

قال الأوزاعي:((كَفَر غيلان القدرى، وقال لهشام بن عبد الملك: دمه فى عنقى))

وقال الشعبي: ((القدرية نصارى)) **وقال سعيد بن جبير**: ((القدرية يهود))

وقال أبو حنيفة: ((نقول لهم: هل علم الله ما يكون قبل أن يفعله؟ فإن قالوا: لا، كفروا؛ لأنهم جهلوا ربهم، وإن قالوا: نعم، نقُل لهم: هل شاء الله خلاف ما علم؟ فإن قالوا: نعم، كفروا؛ لأنه شاء أن يكون جاهلًا، وان قالوا: لا، رجعوا إلى قولنا)).

وسُئل مالك: عن تزويج القدرى، فقال: ولَعَبد مؤمن خير من مشرك.

قال الشافعي: ((ناظروا القدرية بالعلم، فإن تابوا وإلا كفروا))

الإمام أحمد سُئل: يُستتاب القدري ؟ فقال: ((أرى أن يستتيبه إذا جحد العلم))

انظر إلى هذه الآثار في:(شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) اللالكائي (3/706:711)

باب:(**ما رُوي من المأثور في كفر القدرية وقتْلهم، ومَن رأى استتابتهم ومَن لم يرَ**)

([1]) ـ انظر: الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ابن بطة (1 / 171) ط (دار الراية) الرياض.

([2]) ـ وهم ينقسمون إلى قسمين: قسم يقول: الله لم يخلق أفعال العباد من الخير والشر، وقسم يثبتون لله خلق الخير دون الشر.

يقولون أنَّ الله تبارك وتعالى لم يخلق أفعال العباد عمومًا من الخير ومن الشر، ولكنهم يثبتون العلم ــ أي أن الله يعلم كل أعمال العباد ــ.

((الطائفة الثالثة)):

وهم القسم الثاني من متأخري القدرية.

قالوا أن الله خلق الخير، ولم يخلق الشر ــ وعلى هذا جماعة من أهل الحديث الذين كانوا يقولون بالقدر: يقولون أن الله خلق الخير، ولم يخلق الشر، ولعل هذا مقصد الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عندما قال:

((لو فتشت أهل البصرة وجدت ثلثهم قدرية)) [1].

([1]) ـ تاريخ بغداد (12 / 195) طـ (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان .

((مسالك العلماء في معنى حديث: " والشر ليس إليك "))

اعلم _ رحمنا الله وإياك _ أن العلماء لهم مسالك في الجواب عن السؤال

هل يُنْسَب الشر إلى الله ﷻ ؟

((القول الأول)):

قالوا: (الشر ليس إليك) يعنى:

الشر لا يُتقرب به إليك [1].

وهذا مذهب: الخليل بن أحمد، والنضر بن شميل، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، وابن خزيمة، والأزهري، والطحاوي [2].

([1]) ـ معالم السنن، للخطابي (1 / 170) رقم (239) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان، شرح النووي على صحيح مسلم (3 / 52) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان، شرح سنن أبي داود، بدر الدين العيني (2 / 435) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان، مرقاة المصابيح شرح مشكاة المصابيح (2 / 493) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

([2]) ـ السنن الصغير، للبيهقي (1 / 147) رقم (374)، ط (منشورات جامعة الدراسات الإسلامية)، شرح مشكل الآثار، الطحاوي (4 / 223) رقم (1563) ط (مؤسسة الرسالة) بيروت، شرح النووي على صحيح مسلم (3 / 52) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان، البدر التمام شرح بلوغ المرام، (3 / 33) تحقيق (علي بن عبد الله الزين)

((القول الثانى :))

قالوا: (والشر ليس إليك) يعنى:

الشر لا يُضاف إليك على انفراده

يعنى: لا يصح أن نقول: يا خالق الشر، أو يا رب الشر، أو خالق النجاسات، أو يا خالق الخنازير والقردة، أو يا مقدِّر الشر، فلا يصح أن نقول ذلك، إنما نقول: الله خالق كل شيء [1].

فنقول ذلك على العموم، ولا نفرد الله تبارك وتعالى بخلق الشر.

وهذا مذهب أبي عثمان الصابوني [2]، وحُكى عن بعض الشافعية ــالمزنيــ.

وقال به غيرهم من أهل العلم [3].

([1]) ـ شرح النووي على صحيح مسلم (3 / 52) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان، شرح سنن أبي داود، بدر الدين العيني (2 / 435) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان البدر التمام شرح بلوغ المرام، (3 / 33) تحقيق (علي بن عبد الله الزين).

([2]) ـ عقيدة السلف وأصحاب الحديث، الصابوني (صـ 285) ط (دار العاصمة) الرياض.

([3]) ـ شرح النووي على صحيح مسلم (3 / 52) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان، البدر التمام شرح بلوغ المرام، (3 / 33) تحقيق (علي بن عبد الله الزين).

((القول الثالث)):

قالوا معنى الحديث (والشر ليس إليك) يعنى: **الشر لا يصعد إليك** [1].

وهذا قريب من القول الأول الذى قالوا فيه: الشر لا يُتقرب به إليك؛ لقول الله ﷻ: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ ﴾

((القول الرابع)):

(والشر ليس إليك) يعنى: **ليس شرًا بالنسبة لحكمتك** [2]**؛ فالله لم يخلق شرًا محضًا، وإنما الشر الذى يخلقه الله تبارك وتعالى ليس شرًا بالنسبة إليه؛ لأنه صادر عن حكمة بالغة؛ فقضاء الله تبارك وتعالى كله خير، لا شر فيه بوجه من الوجوه بالنسبة لله ﷻ، وإنما يكون الشر فى المقضيِّ الذى هو**

([1]) ـ شرح النووي على صحيح مسلم (3 / 53) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان،
شرح سنن أبي داود، بدر الدين العيني (2 / 435) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان
البدر التمام شرح بلوغ المرام، (3 / 33) تحقيق (علي بن عبد الله الزين)

([2]) ـ شرح النووي على صحيح مسلم (3 / 52) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان،
شرح سنن أبي داود، بدر الدين العيني (2 / 435) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

مفعول لله ﷻ ومخلوق لله تبارك وتعالى.

وعلى هذا ذهب جماعة من أهل التحقيق:

كابن تيمية [1] وابن القيم [2] رحمهما الله.

فهناك فرق بين فِعل الله ﷻ الذى فَعَلَه، وبين مَفْعُولات الله ومخلوقاته،

فالنظر يكون من جهتين:

الجهة الأولى: جهة المُقَدِّر (وهو الله الذي قَدَّر).

الجهة الثانية: جهة المُقَدَّر (وهو مفعولات الله ومخلوقاته).

فالأول، وهو: (**فِعل الله**) النظر فيه من جهة المُقَدِّر (وهو الله الذي قَدَّر).

حكمه: هذا كله خير.

والثاني، وهو: (**مفعولات الله**) فيه الخير وفيه الشر.

([1]) ـ مجموع الفتاوى (14 / 266) الطبعة الثانية (1399 هـ).

([2]) ـ شفاء العليل (صـ 515) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

((تطبيق للبيان)):

خَلْق إبليس: خَلْق الله لإبليس الذى هو فِعل الله: **هذا خير بنسبته لله** ﷻ وفيه الكثير من المنافع ــ كما سيأتي معنا فى سؤال مستقل: ما الحكمة من خلق إبليس ؟ ــ [1]، لكن فى **المفعولات**: فهو شر لبعض المخلوقات؛ لأن مِن المخلوقات من أغواهم إبليس، ودخلوا النار؛ بسبب إغوائه (لعنه الله).

خلاصة الكلام:

الشر في المفعول (المخلوق) وليس في فعل الله ﷻ

وكما سبق وبينَّا أن الشر ينقسم إلى قسمين، وهما: شر محض، وشر نسبي: فيه الخير وفيه الشر: كالبلاء: هو شر مِن وجه مِن ناحية الآلام والأحزان، وهو خير من وجه آخر؛ لأن البلاء تُرفع به الدرجات، وتُكفر به السيئات، وكذلك قطْع يد السارق فيه خير من وجه وشر من وجه ..... إلخ [2].

([1]) ـ انظر: (صـ 134) فيها الإجابة عن هذا السؤال

([2]) ـ وسبق وذكرنا أمثلة على ذلك، وانظر: (صـ 18)

فالله ﷻ لم يخلق شرًا محضًا، فبالنسبة إلى فعله ﷻ فلا يُنسب إليه الشر، فكل ما قدره الله ﷻ من جهة فِعله فلا شر يُنسب إلى فعله، بل كله خير، وأما من جهة المُقَدَّر عليه -وهو المخلوق-: ففيه خير وفيه شر؛ فربنا ﷻ لم يخلق شرًا محضًا، وباعتبار فِعل الله ﷻ وحكمته: فيُعد هذا خيرًا محضًا، ولكن قد يكون هذا الخير شرًا بالنسبة لبعض الناس كما ضربنا المثل فى هذا الباب؛ فربنا ﷻ مُنزَّهٌ عن الشر المحض الكُلى (فِعلًا وخَلْقًا)

ومُنَزَّهٌ عن الشر النسبي (فِعلًا، لا خَلْقًا)

والشر صار شرًا؛ لانقطاع نسبته إلى الله ﷻ لكن إذا نُسبَ إلى الله ﷻ فعلًا فهو خير.

((الترجيح)):

الراجح ــ فى نظرى والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم، إن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأً فمنى ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان ــ :

أن جميع المعاني السابقة صحيحة ــفي الأصلــ والمعنى الأدق والأشمل والذي يتضمن التنزيه الكامل هو المعنى الرابع (الشر ليس في أفعاله وإنما في مفعولاته ومخلوقاته) وإليك بيان ذلك:

أ ـ فالشر ليس إلى الله ﷻ **يعنى: لا يُتقربُ إلى الله بالشر**

هذا وإن تضمن تنزيه الله ﷻ عن التقرب بالشر إليه، لكن لا ينفي أن يكون فعله فيه شر ــ تعالى الله عن ذلك ــ

ب ـ والشر ليس إلى الله ﷻ **يعني: لا يصعد الشر إليه**

هذا وإن تضمن تنزيه الله عن صعود الشر إليه لكن، لكن لا ينفي أن يكون فعله فيه شر ــ تعالى الله عن ذلك ــ

ج ـ والمعنى الأشمل والأدق الذي يتضمن التنزيه، الموافق للفظ المعصوم الصادق المصدوق ﷺ، (والشر ليس إليك) فإنه يتضمن تنزيه الله عن نسبة الشر إليه بوجه من الوجوه، لا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ ولكن في مخلوقاته ومفعولاته [1]

لأن فِعل الله ﷻ كله خير، وإنما الشر في مفعولات الله كما بينه المحقق المحرر ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وغيرهم رحمهم الله.

فلا منافاة بين كل هذه المعاني، وكلها معانٍ صحيحة يشملها الحديث.

((سؤال)):

هل لنا أن نقول أن الله ﷻ خلق الشر ؟

لنا أن نقول ذلك في مقام الرد على أهل البدع [2] ؛ لأنَّ الله ﷻ خالق كل شيء، وهو صانع كل صانع وصنعته ﷻ، وفِعله كله خير ﷻ

([1]) ـ انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم (2 / 444) ط (دار الحديث) القاهرة.

([2]) ـ كالقدرية الذين ينفون خلق الله للشر، وهم "طوائف ثلاث" كما بيناه من قبل بحول الله.

وأما نسبة الشر إليه من جهة الخلق عمومًا [1]: فتنسب إلى الله بضوابط وآداب.

((سؤال)):

وما هذه الضوابط في نسبة الشر إلى الله من جهة الخلق ؟

((الجواب)):

ذكر أهل العلم أنَّ الشر لم يُنسب إلى الله ﷻ مفردًا قط إلا على ثلاثة وجوه [2] وهى:

((الوجه الأول)):

على جهة عموم المخلوقات.

كأن يقال: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ {الزمر:62}

و"كل" من صيغ العموم، فيدخل فى ذلك الشر.

---

(1) ـ والمقصود في غير معرض الرد على أهل البدع.

(2) ـ شفاء العليل (صـ 515) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

((الوجه الثانى)):

أن يُضاف الشر إلى السبب المخلوق.

كما فى قول الله ﷻ: ﴿ قل أَعُوذُ بِرَبِّ الفلق من شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ {الفلق: 2،1}

فأضافه الله ﷻ إلى من خَلَقَه من مخلوقاته ــ وهو السبب ــ وهو مفعولات الله ﷻ

((الوجه الثالث)):

أن يُحذف الفاعل، ويكون لما لم يُسمَّ فاعله

كما قال تبارك وتعالى عن الجن أنهم قالوا:

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ {الجن:10}

فلما ذكروا الشر قالوا: أُريد، ولم ينسبوه لله ﷻ من باب التأدب مع الله ﷻ

وكما قال الخضر عليه السلام كما في قوله تعالى في سورة الكهف:

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ {الكهف:79} فنسب العيب لنفسه،

مع أنه في آخر الآيات قال: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ {الكهف:82}

وعندما جاء ذِكر الخير قال:

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا ﴾ {الكهف:82}

ومن ذلك قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي ذكره الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ {الشعراء:80}

مع أن الله هو الذي خلق المرض وقدَّره، ونسبه لما لم يُسمَّ فاعله من باب التأدب مع الله سبحانه وتعالى

إذن: فالشر لا يُنسب إلى الله جل جلاله فهو ليس فى أفعال الله كما قال النبى عليه الصلاة والسلام (والشر ليس إليك).

الخلاصة:

لنا أن نقول: الشر ليس فى قضاء الله سبحانه وتعالى [1] إنما يكون فى المقضيّ [2].

([1]) ـ لأنه فعل الله، وفعل الله كله خير

([2]) ـ لأنه مفعولات، ومخلوقات الله

((سؤال)):

هل يصح أن نقول: أراد الله ﷻ الشر الموجود في الدنيا ؟

الأصل فى ذلك أننا لا ينبغي أن نقول ذلك من باب التأدب مع الله ﷻ وتعالى (مع أن الشّر أُريد كونًا)، ولكن فى معرض الرد على أهل البدع نقول:

أنَّ الله ﷻ أراد الشر، ولم يُرِد الشر.

((سؤال)): وما معنى أن أراد الله الشر ولم يُرِده ؟

((الجواب)):

أراده كونًا، ولم يُرِده شرعًا؛ فالظلم والقتل بغير حق والكفر .....إلخ

شر، وقد أراده الله كونًا، ولم يرده شرعًا، وسيأتي سؤال بعنوان:

((كيف [1] يكون في ملك لله ما لا يحبه الله ؟))

في مبحث مستقل فيه بيان هذه المسألة [2].

([1]) ـ نذكر السؤال بصيغة (كيف) على سبيل التعليم، وإلا فالأصل: ((لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون)).

([2]) ـ انظر: (صـ 78)

((السؤال الثاني))

ما الحكمة من تقدير المعاصي والذنوب ؟

فى البداية قبل الجواب عن هذا السؤال نؤصِّل هذا الأصل:

((أولًا)):

أنَّ الله ﷻ ((لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)) {الأنبياء:23}

فالخلق خلقه، والملك ملكه يفعل ما يشاء ﷻ.

((ثانيًا)):

الله ﷻ لا يُقْدِّر المقادير إلا لحِكمٍ عظيمة جليلة.

سواء علمنا هذه الحكمة أو لا؛ فهناك حِكَم عظيمة لتقدير الله ﷻ علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها.

ـ ومجرد المعرفة بوجود الحكمة إجمالًا هذا يكفينا، بمعنى لو قدر الله أمرا معينًا، ولم نعرف ما الحكمة من تقدير هذا الأمر، فمجرد أن يعتقد الإنسان أن الله ﷻ فعل هذا الأمر لحكمة، فهذا اسمه: معرفة الحكمة الإجمالية أو: الإيمان بأنَّ الله

ﷻ لا يفعل الأمور إلا لحكمة، فهذا يكفينا.

والسؤال:

ما الحكمة من تقدير الله تبارك وتعالى الذنوب والمعاصى ؟

((الجواب)):

اعلم ــ رحمنا الله وإياك ــ أنَّ هناك حِكَمًا بالغة عظيمة جليلة، فقد قَدَّر الله ﷻ هذه الأمور وَوُجِدَت المعاصى والذنوب لحِكمٍ عظيمة وبالغة، وإليك شيئًا من هذه الحِكم:

((الحكمة الأولى)):

أن يعلم الإنسان أنه يحتاج إلى حفظ مولاه ﷻ

كما كان يقول النبى ﷺ: ((..... يا حَيُّ يا قَيُّومُ بِرحمتِكَ نستغيثُ ، فأصلِحْ لي شأني كُلَّهُ ، ولا تكِلني إلى نَفسي طَرفَةَ عينٍ)) [1].

([1]) ـ حسن: رواه النسائي في السنن الكبرى (10405)، والبزار (6368)، وحسنه الحافظ ابن حجر في نتائج الأفكار (2 / 407).

فإذا رأى الإنسان المعاصى والذنوب علم أنه يحتاج إلى حفظ مولاه، وأنه لو تُرك إلى نفسه طرفة عين لهلك فى التوِ واللحظة.

((الحكمة الثانية)):

أنَّ وجود المعاصى والذنوب يستجلب الكثير من العبوديات:

كالتوبة، والاستغفار، والندم، والخشوع، والخشية، والخضوع، والإنابة، والخوف، والرجاء، والانكسار، والذلة ..... إلخ.

فالإنسان إذا أذنب، ثم بعد ذلك أراد أن يتوب، فإنَّ هذه التوبة ستُخرِج من قلبه هذه العبوديات العظيمة، فتظهر هذه العبوديات بسبب وجود الذنوب.

((الحكمة الثالثة)):

أنَّ فى وجود المعاصى والذنوب إظهارًا لقدرة الله وعزته ﷻ

وذلك لنفوذ مشيئة الله ﷻ وأنه لا مفر للعبد ولا مهرب من قضائه ﷻ فوجود المعاصى والذنوب فيه تعريف من الله للعباد بعزته وقدرته ﷻ

ووجه ذلك:

أنَّ الإنسان عندما يرى نفسه وقع فى المعاصى والذنوب يعلم أنه لا مفر له ولا محيص له ولا مهرب له من قضاء الله ﷻ فيستحضر اسم (العزيز):

أنه ﷻ هو العزيز الذى لا يُغالب ولا يُمانع، وأَمرُه نافذ لا محالة؛ ولذلك قال النبى ﷺ: ((إنَّ اللَّهَ كَتَبَ علَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى، أَدْرَكَ ذلكَ لا مَحَالَةَ: فَزِنَى العَيْنَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَى اللِّسَانِ النُّطْقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلكَ، أَوْ يُكَذِّبُهُ)) [1].

فهذا كُتِبَ على ابن آدم، ولا مهرب لابن آدم مما كتبه الله ﷻ

ــ وهذا يُلجئ العبد إلى الركون والانكسار إلى الله الملك ﷻ، والاستعانة بالله العزيز الذى لا يُغالب ولا يُمانع ﷻ.

((الحكمة الرابعة)):

أنَّ الله ﷻ يحب التائبين

([1]) ـ رواه البخاري (6243)، ومسلم (2657) وغيرهما.

فبعدما كانوا عصاة لله، رجعوا بفضل الله، وتابوا، إلى الله، وأنابوا، واللهُ يحب التائبين، كما قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ {البقرة:222}

ولولا تقدير المعاصي عليهم لما وصلوا لهذه المنزلة، فبعدما فعلوا ما فعلوا، واقترفوا ما اقترفوا مما يبغضه الله ﷻ وفَّقهم الله التواب الرحيم إلى التوبة والإنابة والرجوع وربنا يحب منهم هذه التوبة، ويفرح بها كما أخبر بذلك نبينا ﷺ:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِن أَحَدِكُمْ كانَ علَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ منه وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فأيِسَ منها، فأتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا، قدْ أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبيْنَا هو كَذلكَ إِذَا هو بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فأخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ)) [1].

فربنا يفرح بالعبد التائب الذى يرجع إليه.

([1]) ـ رواه مسلم (2747).

((الحكمة الخامسة)):

أنَّ الله ﷻ يتفضَّل على عباده، ويُنعِم عليهم، ويريهم برَّه وإحسانه

فالرحيم ﷻ يتفضل على عباده، وينعم عليهم بعد خطأهم وذنوبهم، ويريهم واقع بِرِّه وكرمه وإحسانه، ومن أعظم الإحسان أن يحسن الله ﷻ إلى من عصاه ومَن أساء: بأن يمهله، ويوفقه للتوبة والرجوع إليه ﷻ فيظهر بِرُّه وكرمه، **وهذا يدفع الطائعين إلى الطمع فى رحمة الله ﷻ.**

ووجه ذلك (أن هذا يدفع الطائعين للطمع في رحمة الله):

أنَّ هذا تعامل الله ﷻ مع المسيء العاصي ــ يُحسِن إليه ﷻ ــ فإذا كان الله تبارك وتعالى أحسنَ إلى مَن عصى وأساء، فكيف بالمؤمن المطيع ؟!

ــ وهذا يفتح أبواب الرحمة أمام المؤمنين، ويجعلهم يطمعون فى رحمة الله وجوده وكرمه وإفضاله وإنعامه ﷻ.

((الحكمة السادسة)):

أنها تُظهِر للعبد حقيقة نفسه، وأن النفس البشرية ظالمة لنفسها

فالمعاصي والذنوب تُظهِر حقيقة النفس البشرية، وأنها خطَّاءة ظَلُومة، وهذا معدن الإنسان كما قال ربنا ﷻ عنه:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ {الأحزاب:72}

فإذا رأى الإنسان المعاصى والذنوب عَلِم حقيقة نفسه، وأن النفس البشرية الأصلُ فيها الظلمُ والجهلُ، وهذا أمر عظيم؛ لأنه يُزيل الكِبْر من قلب العبد.

((الحكمة السابعة)):

أن يعرف العبد كرم الله تبارك وتعالى وسِتره العظيم

فالإنسان يعرف كرم مولاه وسِتره بوجود المعاصي والذنوب

ووجه ذلك: أن العبد يُذنب ويذنب، وربنا ﷻ الستير الرحيم العفو يستره ولا يفضحه وكما قال محمد بن واسع رَحِمَهُ اللَّهُ:

((لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ مَا قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ)) [1].

([1]) ـ محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا، (صـ 82) رقم (37) طـ (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

فكم من معصيةٍ اقترفتَها أنت أنت بيديك، وسترها الله ﷻ عليك !

فكم من ذنب وقعتَ فيه وستره الله ﷻ عليك !

((الحكمة الثامنة)):

أن يعامل العبدُ الناسَ كما يحب أن يعامله الله ﷻ

فأنت بلا شك تحب أن يعاملك الله ﷻ بالإحسان والستر والعفو، وكذلك أنت إذا رأيت من أخيك ذنبًا أو معصية أو إساءة، فاستر عليه، وانصحه فى الخفاء، وادعُ له، ولا تفضحه، وعامله كما تحب أن يعاملك الله.

((الحكمة التاسعة)):

الحذر من الذنوب والحذر من مكايد الشيطان

إنَّ المعاصى والذنوب تُوجِب لصاحبها الحذر، وتُوجِب لصاحبها معرفة مكايد الشيطان والتيقُّظ والاحتراز من هذه الوساوس.

مثلًا: إنسان يقع فى المعاصى والذنوب بسبب اختلاطه بالنساء، فإذا وقع فى الذنب فهذا يدفعه إلى الاحتراز وألا يختلط بالنساء ــ بغير ضابط شرعي ــ

حتى لا يقع في مكايد الشيطان وحبائله، ويقع في المحذور الذي يَضْعُف عنده.

((الحكمة العاشرة)):

إقامة المعاذير للخلائق

فالعباد أصحاب معاصٍ وذنوب كما في الحديث:

عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

((كلُّ ابنِ آدمَ خطَّاءٌ، وخيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابون)) [1].

فنحن أصحاب معاصٍ وذنوب، فإذا رأيتَ واحدًا من الناس يقع فى ذنب وفى معصية فإنَّ هذا يحملك على خلق المعاذير لهم، بمعنى أنه ما من عاصٍ إلا وينظر إليه الإنسان بعينين:

أ ـ عين الشرع: تُبغِض منه هذا الفعل الذى فعله.

ب ـ عين القدر: أنك ترحمه؛ لأنه ابتُلى بهذا الذنب وهذه المعصية.

فالإنسان إذا علم أنه يقع فى المعاصى والذنوب ولمس من نفسه ذلك، أقام

([1]) ـ رواه أحمد (13049)، والترمذي (2499) وغيرهما، وحسنه ابن القطان، وابن حجر، والألباني.

المعاذير للخلق؛ فإنهم وقعوا فى المعاصى كما وقعتَ أنت فى المعاصى والذنوب، فإذا أساء إليك أحد فاعلم أنك أيضًا قد أسأت من ذي قبل، وإذا قدَّم إليك أحد الاعتذار فاقبله، وتخلَّق بآثار صفة الله ﷻ العفو والصفح والغفران.

((الحكمة الحادية عشرة)):

نَزْع رداء الكبر والعُجْب والعظمة من قلب العبد

إذا وقع العبد في المعصية وتاب، نُزِعَ رداء الكِبر والعُجب والعظمة من قلبه، ويلبس العبد لباس الذُّل والانكسار ورداءه.

ـ فكم من عبد كان عنده كبر وعُجْب بعمله، فابتلاه ربنا ﷻ بمعصية، فخلع رداء الكبر، ولبس رداء الانكسار والذل والافتقار إلى الله ﷻ بسبب هذا الذنب !

ـ فكم من ذنب أزال كِبْرًا وعُجْبًا من قلب العبد !

((الحكمة الثانية عشرة)):

إقامة الحجة على العباد

الذنوب والمعاصي فيها إقامة الحجة على العبد، فإذا وقع بالعبد البلاء وأصابه ما أصابه، فلا يقل: من أين أُتيت؟ ولا: بأي ذنب أُصبتُ؟

فما أصاب العبد من مصيبة ليس إلا بما كسبت يداه، ويعفو ربنا ﷻ عن كثير.

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ {النحل:61}

وقال الله ﷻ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ {الشورى:30}

قال الله ﷻ: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ {الروم:41}

((الحكمة الثالثة عشرة)):

ابتلاءٌ للعبد؛ ليذوق ألم الإعراض عن الله ﷻ

المعاصي والذنوب ابتلاءٌ للعبد: فَيَبْتَلِي اللهُ العبدَ بالإعراض عنه، فيذيقه ﷻ ألم الحجاب عنه ﷻ، ويذيقه ألم زوال الأنس به ﷻ، ويذيقه ألم زوال القرب منه ﷻ؛ لأجل امتحان العبد.

فإذا أقام العبد راضيًا عن حاله على المعصية، ولم يجد فى نفسه جهادًا ليعود ويرجع إلى الله ﷻ، واطمأنت نفسه وسكنت إلى غير الله وإلى المعصية – كان هذا العبد لا يصلح لله ﷻ، ويجعله الله ﷻ فى المكانة والمرتبة التى تليق بهذا العبد؛ فإن تاب، وأناب، وجاهد نفسه، وخلع ثوب المعصية، ولم تسكن نفسه إلا بالقرب من الله ﷻ والرجوع إليه ﷻ – رفعه الله، وقرَّبه، وآواه !

((الحكمة الرابعة عشرة)):

إغاظة للشيطان

أنها فيها إغاظة للشيطان، وذلك باتباعها (المعصية) بالتوبة والاستغفار والندم، وكم من معصية ولَّدَت فى قلب العبد الندم والتوبة والإنابة والانكسار لمولاه !

وكم من معصية ولَّدت فى داخل الشيطان الندم على تسويله للإنسان بها !

مثلًا: إنسان سَوَّل له الشيطان معصية: مِن زِنى، وشُرب خمر وما شابه ذلك ففعل ــ والعياذ بالله ــ فرح الشيطان بذلك، ثم بعد ذلك ندم هذا العبد، وكلما تذكَّر هذه المعصية تاب إلى الله ﷻ وفعل ألوانًا من الطاعات من: الاستغفار، والصيام، والصلاة والذِّكر وما شابه ذلك، حينها يندم الشيطان على أن سَوَّل له هذه المعصية؛ لأنه تاب فتاب الله ﷻ عليه، وغفر له هذه المعصية، وفتحت هذه التوبة على العبد أشكالًا مِن الطاعات وألوانًا من العبادات ومن الأعمال الصالحة التى جعلت الشيطان يعضُّ على يديه ندمًا على ذلك !

((الحكمة الخامسة عشرة)):

الانشغال بعيوب النفس

فالعبد الفطن اللبيب إذا وقع في الذنوب والمعاصي حَمَله ذلك على الانشغال

بعيوب نفسه والانشغال بإصلاحها، وكفَّ عن الكلام عن الآخرين [1] والانشغال بعيوبهم.

((الحكمة السادسة عشرة)):

التوبة وآثارها الطيبة

إن التوبة تُوجِب للتائب آثارًا عجيبة من المقامات التى لا تحصل من دونها: كالندم، والانكسار، والخضوع، والذلة، والتضرع، والبكاء..... إلخ.

فهذه الأمور ما كانت لتحدث إلا عندما يُذنب الإنسان، ويتوب إلى الله ﷻ **وما ذكرناه هاهنا غَيْض من فَيْض؛ ففي هذا تُصنف المصنفات، وتُكتب المجلدات، وتُسَوَّد الأوراق سنوات، ولكنها إشارة واختصار**، وبالله التوفيق.

([1]) ـ وليس المقصود من ذلك تَرْك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنصح للمسلمين (بضوابطه الشرعية)، وإنما المراد: الانشغال بعيوب الناس لا على جهة النصح، مع تَرْك عيوب النفس.

((السؤال الثالث)):

ما الحكمة من تقدير البلاء ؟

كثير من الناس فقراء، وكثير من الناس لديهم مشـــاكل، وكثير من الناس مرضى، وكثير من الناس عندهم أبناء ولا يبِرُّونهم، وكثير من الناس عندهم ما عندهم من البلاء والهموم ..... إلخ.

فما الحكمة من تقدير البلاء ووجوده ؟

فى البداية قبل الجواب عن هذا السؤال: نؤصِّل هذه الأصول:

((أولًا)):

أنَّ الله ﷻ ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ {الأنبياء:23}

فالخلق خلقه، والملك ملكه، يفعل ما يشاء ﷻ.

((ثانيًا)):

ينبغي ولابد للمسلم فى أبواب القدر أن يستحضر المسلم عدل الله ﷻ التام وكمال أفعاله ﷻ وأنه لا يظلم الناس شيئًا لكمال عدله ﷻ كما قال ﷻ:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {النحل:118}

قال الله ﷻ:﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {النحل:33}

قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ {النساء:40}

قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {يونس:44}

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ {الزخرف:76}

فربنا ﷻ لا يظلم الناس شيئًا.

((ثانيًا)):

الله ﷻ لا يُقْدِّر المقادير إلا لِحِكمٍ عظيمة جليلة.

سواء علمنا هذه الحكمة أو لا، فهناك حِكم عظيمة لتقدير الله ﷻ، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها، كما سبق وذكرنا من قبل [1].

([1]) ـ انظر (صـ 16)

واعلم ـــ رحمنا الله وإياك ـــ أن تقدير البلاء له حِكم بالغة عظيمة، ومنها:

((الحكمة الأولى)):

معرفة نعمة العافية

فلولا الليل ما عُرف النهار، ولولا البلاء ما عُرف الرخاء، ولولا المرض ما عُرف قدر الصحة، فعلى سبيل **المثال**:

أنت تتنفس فى اليوم الواحد (360) لترًا من الأكسجين تقريبًا، وهذه نعمة عظيمة، ولعلك تتأمل معى مصيبة مَن لا يقدر على التنفس الطبيعي، فنشكر ربنا تبارك وتعالى على نعمة العافية؛ ولذلك حثنا نبينا ﷺ أنه إذا رأى أحدنا عبدًا مُبتلًى أن يحمد الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: ((مَن رأى مبتلًى فقالَ: الحمدُ للَّهِ الَّذي عافاني ممَّا ابتلاكَ بِهِ، وفضَّلني على كثيرٍ ممَّن خلقَ تفضيلًا، لم يصبْهُ ذلِكَ البلاءُ)) [1].

([1]) ـ **صحيح لغيره:** رواه الترمذي (3432)، والبزار (6217)، والطبراني في الدعاء (799) وصححه وحسنه جماعة من أهل العلم، منهم (ابن القطان، والرباعي، والمنذري، والهيثمي، والسيوطي، والألباني).

((الحكمة الثانية)):

اختبار لصبر العبد وإيمانه

فالله ﷻ يمتحن إيمانك، ويمتحن صبرك، فإن وُجِدَ الصبر وُجد معه كل خير؛

لذلك كان هذا البلاء بمثابة التمحيص للمؤمنين، كما قال الله ﷻ:

﴿ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ {آل عمران:141}

والتمحيص في الآية له معان، وهي:

أ ـ الاختبار.

ب ـ التطهير من الذنوب.

ج ـ التخليص: يُقال: محَّصه يمحِّصه محصًا: إذا خلصه [1].

ومعنى الآية:

وليختبر الله ويبتلي أهل الإيمان؛ ليخلصهم من الذنوب والعيوب [2]؛

([1]) ـ تفسير القرطبي (4 / 195) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة، لسان العرب، ابن منظور (8 / 214) مادة (محص) ط (دار الحديث) القاهرة.

([2]) ـ تفسير القرطبي (4 / 195) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة،

فالبلاء اختبار لإيمان العبد، فإذا وُجِدَ الصبر كان معه التطهير والتزكية من الله.

((الحكمة الثالثة)):

تهذيب النفس وإصلاحها

فكم بلاء كان نعمة على صاحبه! فرُبَّ عبد يكون الخير له فى البلاء؛ فقد ترى إنسانًا عاصيًا مُسرِفًا على نفسه فى المعاصي، فَيُصَاب بالبلاء، فَيُصْلِح من نفسه، ويعود، ويؤوب، ويرجع، ويتوب إلى الله ﷻ، فمن الناس مَن لو صح بدنه وكثر ماله، لطغى فى الأرض وتكبر، فكم من بلية كانت سببًا فى استقامة العبد وفراره إلى الله ﷻ كما قال الله ﷻ:

﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ {الشورى:27}

قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسان أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴾ {فصلت:51}

فكم من إنسان كان فى غاية الاعوجاج، فابتلاه ربنا ﷻ ببلية، فاستقام، وعاد إلى ربه ﷻ، فكان هذا البلاء فى ظاهره المحنة، لكن أعطاه الله ﷻ فيه المنحة،

والفضلُ لله ﷻ !

ـــ وكذلك إذا استمرت هذه الحياة هانئة فسوف يصل الإنسان إلى مرحلة الغرور والكِبْر، ويظن نفسه مُستغنِيًا عن الله ﷻ، فمن رحمة الله ﷻ أنه يبتلى العبد؛ ليعود إلى ربه ﷻ وينصلح حاله.

((الحكمة الرابعة)):

شكر النعمة، ومعرفة قدر العافية

فإذا ابتُلى العبد ببلاء -كمرض أو نحو ذلك- فإنَّ هذا البلاء يُعَرِّفَه قدر الصحة، وإذا عافاه ربنا تبارك وتعالى وانتقل من ضيق البلاء إلى سعة العافية، تزداد محبته لخالقه ومولاه الذى شفاه، ويزداد شكره لله ﷻ على هذه النعم.

فسبحان مُستخرِج الدعاء بالبلاء ! وسبحان مُستخرِج الشكر بالعطاء !

((الحكمة الخامسة)):

تخويف العبد

فالبلاء فيه تخويف للعبد؛ لعله يتوب إلى الله ﷻ، ويرجع؛ فمن العباد مَن لا

يُصلح حاله إلا بالبلاء كما قال الله ﷻ:

﴿ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ {الزخرف:24}

وكما قال الله ﷻ: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ {الروم: 41}

((الحكمة السادسة)):

إظهار الفقر والتضرع لله ﷻ

البلاء فيه إظهار الفقر والدعاء والتضرع لله ﷻ؛ فربما لا يخطر ببال العبد أن الله ﷻ ابتلاه بذلك البلاء؛ ليسمع صوته وهو يدعوه، ويرى فقره وهو يرجوه؛ فربنا ﷻ يحب سؤال العبد [1]، ويحب تضرع العبد وبكاءه ورَفْع يديه من أجل الدعاء والتضرع له ﷻ؛ ولذلك قال النبي ﷺ:

((مَن لم يسألِ اللهَ يغضبْ علَيهِ)) [2]

([1]) ـ ومن الأخطاء عند عامة الناس قولهم: ((ربِّ، أنت أعلم بحالي، وغنيٌ عن سؤالي)) وهذا خطأ.

([2]) ـ حسن: رواه أحمد (9719)، والترمذي (3373)، وابن ماجه (3827) وحسنه الحافظ ابن حجر، وغيره.

قال الله ﷻ: ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ {الأنعام:43}

وقال وهب بن منبه رحمه الله: ((يَنْزِلُ الْبَلَاءُ لِيَسْتَخْرِجَ الدُّعَاءَ)) [1].

((الحكمة السابعة)):

إخراج العُجْب والكِبْر من قلب العبد

البلاء يُخْرِج العجب والكِبْر من قلب العبد؛ فالكِبْر داء خطير كما قال الله

ﷻ: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ {النحل:23}

وقال الله ﷻ: ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ {الزمر:60}

بل وقال النبى ﷺ مبيِّنًا مآل الكِبْر:

((لا يدخلُ الجنَّةَ مَن كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ مِن خردلٍ مِن كِبرٍ...)) [2]

فمن حِكم وجود الابتلاء أنه يُخرِج الكبر من قلب العبد؛ فالعبد الذى

يتكبر يرى ضعفه عند الابتلاء، وأنه قد ابتُلى بمرض مثلًا تسبَّب فى إقعاده

([1]) ـ الشكر، لابن أبي الدنيا، (صـ 54) رقم (130)، طـ (مؤسسة الكتب الثقافية) بيروت ـ لبنان.

([2]) ـ رواه أحمد (4310)، ومسلم (91)، و أبو داود (4091)، والترمذي (1998)، وابن ماجه (4173).

وضعفه، وأصبح هوانه ظاهرًا جليًا، فيؤدى هذا إلى قَطْع الكِبْر من قلب العبد، وقَطْع العُجب من النفس.

((الحكمة الثامنة)):

تكفير السيئات

فالبلاء سبب في تكفير السيئات كما ورد في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ((ما يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ والمؤْمِنَةِ في نفسِهِ وولدِهِ ومالِهِ، حتَّى يلقَى اللهَ وما علَيهِ خطيئةٌ)) [1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

((إذا أرادَ اللهُ بعبدِهِ خيرًا عجَّل له العُقوبَةَ في الدُّنيا، وإذا أرادَ اللهُ بعبدِه الشَّرَّ أمسَكَ عنه بذَنْبِه حتى يوافيَ به يومَ القيامةِ)) [2].

((سؤال)): هل تكفير الذنوب بالبلاء خاص بالصغائر أو بالكبائر؟

([1]) ـ صحيح : رواه أحمد (7859)، والترمذي (2399) واللفظ له .

([2]) ـ **حسن لغيره:** رواه الترمذي (2396)، وابن ماجه (4031).

((**الجواب**)): الجمهور على أن المصائب تكفير للصغائر دون الكبائر [1]

([1]) ـ اختلف العلماء (رحمهم الله) في المصائب: هل هي مُكفِرات للصغائر والكبائر؟ أو أنها مُكفِرات للصغائر فقط ؟ اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

((القول الأول)): المصائب مكفرات للصغائر دون الكبائر، وأما الكبائر: فتحتاج للتوبة أو عفو الله، وهذا قول جمهور أهل العلم.

واستدلوا على ذلك:

أقوى حجج الجمهور: حمْل المطلق على المقيد، فقالوا: أحاديث تكفير الذنوب بالمصيبة مطلقة، وقيدها قول النبي ﷺ ((الصلواتُ الخمْسُ، والجُمعةُ إلى الجُمعةِ، ورَمضانُ إلى رمضانَ: مُكَفِّراتٌ لما بينهُنَّ إذا اجْتُنِبتِ الكبائِرُ)) رواه مسلم (233)

فقيدوا نصوص تكفير الذنوب باجتناب الكبائر.

((القول الثاني)): المصائب مكفرات للصغائر والكبائر، ولا مجال لحمل المطلق على المقيد

واستدلوا: بعموم الأدلة في تكفير الذنوب بالمصائب، ومنها:

أ ـ ((ما من مسلمٍ يصيبُه أذىً من جسدِه؛ إلا كان كفارةً لخطاياه))

صحيح: رواه أحمد (16899)

ب ـ ((.... ما مِن مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذًى، مَرَضٌ فَما سِوَاهُ، إلَّا حَطَّ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ ورَقَهَا)) رواه البخاري (5667) ومسلم (2571)

وهذه النصوص وغيرها على عمومها، فتشمل الصغائر والكبائر،

وأجابوا عن أحاديث التقييد بأنها تتعلق بالأعمال المذكورة من: الصلاة، والصيام، والجمعة .....إلخ،=

= ولا وجه لدخول المصائب فيها.

والأقرب في نظري ــ والله أعلم، إن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطًا فمني ومن الشيطان والله ورسوله بريئان ــأن المصائب الدنيوية تتفاوت، والصبر عليها يتفاوت: فهناك مصائب عظيمة والصبر عليه يكون عظيمًا، فهذه قد تكون مكفرات لبعض الكبائر، أو لشيء منها، وأخرى قد لا تكون مكفرات ولا سيما في الكبائر التي فيها الحدود، والله أعلم.

واعلم ــ رحمنا الله وإياك ــ أن المصائب المُكفِّرة -من حيث مكانها- أقسام:

((القسم الأول)): **مصائب في الدنيا** مثل: الخوف، والمرض، والفقر، والجوع، ونقص الثمرات، وسكرات الموت ..... إلخ.

((القسم الثاني)): **مصائب البرزخ** من: آلام البرزخ، وضمة القبر، وفتنته ..... إلخ.

((القسم الثالث)): **مصائب الآخرة** ما يكون في عرصات القيامة من: الأهوال، والكُرب، والشدائد، وأخف هذه المصائب مصائب الدنيا، ثم البرزخ أشد، ثم عرصات القيامة وأهوالها أشد وأعظم (نسأل الله السلامة والعافية).

فرع: اختلف العلماء في المصائب: هل هي مكفرات ومثيبات، أو مكفرات فقط؟

من العلماء مَن قال: هي مكفرات وحسب؛ لظواهر النصوص، وبهذا قال جماعة من الصحابة والسلف كما ذكره ابن رجب (جامع العلوم والحكم)، (527/3) ط (دار السلام) القاهرة ـ مصر.

ومن العلماء مَن قال: هي مكفرات ورافعة للدرجات وعليها ثواب، وقد ذكر النووي أنه قول الجمهور. (شرح النووي على صحيح مسلم)، (8 / 374) ط (دار أبي حيان) واحتجوا بقوله تعالى:

((ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ))

بقوله تعالى: ((إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ))

وبعض الأحاديث الأخرى، ولكلا الفريقين إجابات وردود على الآخر، والمسألة لها أصول وتفاصيل وفروع لا يحتمل المجال ذِكرها، ولكن أحببنا أن نشير إليها، وبالله التوفيق.

((الحكمة التاسعة)):

قد يكون رِفعةً للدرجات

البلاء قد يكون رِفعةً للدرجات؛ فإنَّ عِظم الجزاء مع عِظم البلاء، ولولا مصائب الدنيا لوردنا إلى يوم القيامة مفاليس؛ ولذلك روى الإمام مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

((ما يُصِيبُ المؤْمِنَ مِن شَوْكَةٍ فَما فَوْقَها إلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ بها دَرَجَةً، أوْ حَطَّ عنْه بها خَطِيئَةً)) [1].

([1]) ـ رواه مسلم (2572)، وهذا الحديث فيه جواب على إشكال، وهو:

إذا كان البلاء لتكفير السيئات، فما الحكمة من بلاء الأنبياء وهم معصومون ومن أهل الجنة؟

والجواب: إنما البلاء للأنبياء يكون لأمور، ومنها:

أ ـ كما في الحديث: لِرفعة درجاتهم صلوات ربي وسلامه عليهم.

ب ـ ليتسلى بهم مَن بعدهم من الصالحين والمُصلِحين وغيرهم من أُمَمهم: فيأتسون بهم، ويصبرون.

ج ـ ولتزداد سيئات المشركين المحاربين لأنبياء الله، فيمتلئ صاع الكفار، فيستحقون العقاب الوخيم الأليم؛ لكفرهم بأنبيائهم، وغير ذلك من الحِكم العظيمة.

((الحكمة العاشرة)):

البلاء يربي الرجال

البلاء مصنع الرجال؛ فالابتلاء يربى الرجال، ولذلك سيد الرجال النبى ﷺ اختار الله ﷻ له العيش الشديد الذى تخللته الشدائد منذ الصغر: فقد مات أبوه قبل أن يُولد، ثم بعد ذلك ماتت أمه، ثم جده، ثم بعد ذلك انتقل للعيش مع عمه، ثم رعى الغنم، ثم بعد ذلك اشتغل بالتجارة..... إلخ، بأبي هو وأمي! فكأن الله ﷻ يهيئ نبيه ﷺ بهذه الشدائد وبهذه التربية؛ لأجل هذه المهمة العظيمة التى خلقها ربنا ﷻ له، وهى النبوة والرسالة ﷺ، وكذلك الصحابة رضي الله عنهم عاشوا فى شدة العيش تربيةً من الله ﷻ لهم لحمْل لواء الدين وحمْل هذه الرسالة التى أتى بها النبى ﷺ، ولتبليغ هذه الرسالة بعد موت النبى ﷺ، ولفتح الفتوحات.

وكذلك تجد العلماء الربانيين -كالأئمة الأربعة وغيرهم- عاشوا فى فلك اليُتم

والفقر والبلايا والمحن تهيئةً مِن الله ﷻ لهم، وكأنما يُعِدُّهم ﷻ بهذه المعاناة وهذه الشدائد من الصغر على تحمل المسئولية والأمانة العظيمة.

((الحكمة الحادية عشرة)):

تعلق القلب بالله ﷻ

فالإنسان عندما تضيق عليه الأمور يزداد تعلق قلبه بربه ﷻ، وينتظر الفرج من ربه وخالقه ومولاه، ولاسيما إن طال البلاء وضعف احتماله، فإنه يلجأ إلى ربه تبارك وتعالى، ويعلم أنه لا محيص ولا مفر ولا مخرج له من البلاء إلا بالله ﷻ، فيعلِّق قلبه بالله ﷻ، فكم من عبد علق قلبه بالله ﷻ بعد البلاء، فسبحان ربِّ العرش العظيم!

((الحكمة الثانية عشرة)):

البلاء يكشف حقيقة الدنيا

البلاء يكشف حقيقة الدنيا، ويكشف لك زيف الدنيا، وأنها متاع الغرور؛ فالحياة الكاملة ليست فى هذه الدنيا؛ فهذه الحياة ما هى إلا متاع كما قال

الله ﷻ: ﴿ ومَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ {آل عمران:185}

وكما قال الله ﷻ:

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ ﴾ {الحديد: 20}

فهذه الدنيا ليست بحياة حقيقةً، إنما هى أشبه بالحياة الزائفة كما قال الله ﷻ:

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ {العنكبوت: 64}

فالحياة الحقيقية إنما هي عند الله فى الآخرة، أما هذه الدنيا: ففيها ما فيها من النكد والتعب والهم كما قال الله ﷻ:

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾{البلد:4}

((الحكمة الثالثة عشرة)):

الاشتياق للجنة

فإنك أخي الحبيب لن تشتاق إلى الجنة إلا إذا ذقت مرارة الدنيا، فكيف تشتاق للجنة وأنت هانئ العيش فى هذه الدنيا؟!

ولذلك لما سُئل الأمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: مَتَى يَجِدُ الرَّجُلُ الرَّاحَةَ؟

قَالَ: ((عِنْدَ أَوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُهَا فِي الْجَنَّةِ)) [1]

فهناك تكون الراحة في الدار التى فيها النعيم المقيم، التى لا فيها كدر ولا همٌ ولا حزن ولا بلاء بفضل الله ﷻ.

((الحكمة الرابعة عشرة)):

التمييز بين أُخُوَّة الصدق والأصحاب والأصدقاء الحقيقيين وغيرهم

فالإنسان يميز بين: إخوان الصدق والأصدقاء الحقيقيين، وأصدقاء المصلحة كما قال الشاعر

جزى الله الشدائد كل خير ..... وان كانت تغصصني بريق

وما شكري لها حمدًا ولكن ..... عرفت بها عدوى من صديقي

((الحكمة الخامسة عشرة)):

التذكير بالذنوب، والحث على التوبة والعودة

البلاء يذكرك بذنوبك؛ لتتوب إلى ربك ﷻ يقول الله ﷻ:

([1]) ـ تاريخ دمشق، ابن عساكر (3 / 315) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

﴿ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ {النساء: 79}

ويقول الله ﷻ: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ ﴾ {الشورى: 30}

فالبلاء فرصة للتوبة قبل أن يحل العذاب؛ لأنه يذكرك بذنوبك؛ إذ الذنوب سبب البلاء كما قال العباس رضي الله عنه في استسقائه في عهد عمر رضي الله عنه:

((اللَّهُمّ إنه لم ينزل من السَّمَاءِ بلاءٌ إلَّا بذَنْبٍ، ولن تكشفه إلَّا بتوبة))[1].

فهذا البلاء سبيل للتوبة، فكم من إنسان كان غارقًا فى المعاصى والذنوب فابتلاه الله ﷻ فتاب، وآبَ، ورجع الى ربه!

ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ {السجدة: 21}

والعذاب الأدنى: هو مصيبات الدنيا وبلاؤها ونكدها، وما يصيب الإنسان

([1]) ـ المجالسة وجواهر العلم، أبو بكر الدينوري رقم (727)، المسالك في شرح موطأ مالك، ابن العربي (2 / 298) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

من السوء فيها – على وجه من وجوه التفسير– [1].

ولأن الإنسان إذا عاش دون بلاء فإنه سيطغى كما قال الله ﷻ:

﴿ كَلَّا إِنَّ الإنسان لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ {العلق:6}

فإذا استمرت هذه الحياه هانئة فسوف يصل الإنسان إلى مرحلة الغرور والكِبْر، ويظن نفسه مستغنياً عن الله ﷻ، فمن رحمة الله ﷻ أنه يبتلى العبد؛ ليعلم العبد أنه لا يستغني عن خالقه ومولاه طرفة عين، وليعود العاصي إلى ربه ﷻ ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ {الروم:41}

فكم من عبد رجع عن غيّه وظلمه ومعصيته بسبب البلاء!

((الحكمة السادسة عشرة)):

قد يكون البلاء علامة على محبة الله للعبد

([1]) ـ تفسير الطبري (9 / 166) طـ (دار الحديث) القاهرة، وفي تفسيرها أوجه، ومنها: (قيل: الحدود، وقيل: عذاب القبر، وقيل: عذاب الدنيا وعذاب القبر).

قد يكون البلاء شرفًا عظيمًا للعبد، ويكون دلالة على محبة الله ﷻ للعبد

كما قال النبي ﷺ:

((إذا أحبَّ اللهُ قومًا ابتلاهم، فمَن صبر فله الصبرُ، ومن جزع فله الجزَعُ)) [1]

فإذا ابتلاك الله ﷻ فتذكر أخي الحبيب أنه يحبك، فيبتليك ربك تكفيرًا

لذنوبك ورفعة لدرجاتك بفضل الله ﷻ

((الحكمة السابعة عشرة)):

يُعْلَم بتقدير البلاءِ الصابرُ من غيره

فبتقدير البلاء يُعْلَم الصابر من غيره كما قال الله ﷻ:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

{محمد:31}

قال الله ﷻ: ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ {آل عمران:142}

([1]) ـ إسناده جيد: رواه أحمد (23633)، والبيهقي في الشعب (9784).

((الحكمة الثامنة عشرة)):

استخراج عبوديات كثيرة

فبتقدير البلاء تُسْتَخْرج الكثير من العبوديات؛ فالله ﷻ عندما يبتلي العبد تَظهر حقيقةُ نفس العبد واقعًا عمليًا أمامه، ويعلم أنه عبد ضعيف لا حول ولا قوة له إلا بربه ﷻ، فإذا علمت ضعفك وفقرك علمت غنى مولاك وقوته وفقرك له ﷻ، فتنفجر في قلب العبد عبوديات: فيخشع قلبه، ويخضع، وينكسر، ويتذلل، ويتمسكن لخالقه ومولاه ﷻ

ـ وما ذكرناه ها هنا غَيْض من فَيْض فى هذا الباب، وهذه بعض الحِكم من وجود البلاء وتقديره.

لكن هاهنا إشكال فيما ذكرناه نختم به، وهو:

قال الله ﷻ:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾

قال الله ﷻ: ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

فهل ربنا ﷻ لا يعلم ليقول: حتى يعلم؟

((الجواب)):

الله ﷻ يعلم بلا شك؛ فالله ﷻ يعلم ما كان وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ولكن المقصود بذلك إقامة الحجة على العباد حتى إذا جاء العبد إلى ربه تكون قد أُقيمت عليه الحجة.

فمثلاً: لو أن الإنسان جاء إلى الله ﷻ، فأدخله ربنا النار، فقال العبد:

يا رب، علامَ أدخلتني النار؟

فقيل له: لأنك أيها العبد كنا سنقدِّر عليك البلاء، وأنت ما كنت لتصبر على هذا البلاء، وكنت ستكفر بالله ﷻ، لذلك عُذِّبْتَ فى النار !

فماذا سيقول العبد؟

ستكون له الحُجة فيقول: يارب، أنا لم أفعل ذلك، فهل ابتليتني، ووجدت منى أننى لم أصبر على البلاء ؟

ولذلك يجعل ربنا ﷻ هذا الذى عَلِمَه وخَلَقَه أراده ـــ من فِعل العبد ـــ وقدَّره واقعًا عمليًا؛ ليكون حجة على العبد فى هذا الباب؛ فسبحان ربنا الحَكَم العَدْل يفعل ما يشاء ﷻ !

((السؤال الرابع))

كيف [1] يكون في ملك الله ما لا يحبه الله ؟

فى البداية قبل الجواب عن هذا السؤال: نؤصل هذا الأصل السابق ذِكره:

((أولًا)):

أنَّ الله ﷻ ((لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ)) {الأنبياء:23}

فالخلق خلقه، والملك ملكه، يفعل ما يشاء ﷻ .

فلا يصلح أن نقول لله ﷻ كيف؟

محل الإشكال في هذا السؤال:

محل الإشكال فى هذا السؤال أننا إذا قلنا أنه لا يوجد فى هذا الكون إلا ما شاءه وأراده الله ﷻ، فَسَيُشْكل أن هذا الكون فيه: كفر، وقتل، وشر، وزنى، وفحش، وظلم، وخيانة، وأكل للحقوق، وانتهاك للأعراض .....إلخ.

([1]) ـ نذكر السؤال بصيغة كيف على سبيل التعليم، وإلا فالأصل: ((لا يُسئل عما يفعل وهم يُسألون)).

فهل كل هذه الأشياء أرادها الله ﷻ ؟

ولو أرادها ﷻ فكيف يكون فى مُلْكِ الله ما لا يحبه الله ﷻ ؟

فنقول قبل الجواب:

مسائل القدر مدارُها فى السير خلف الدليل، مع العبودية والتسليم التام لله ﷻ،

وأن يعرف الإنسان قدره جيدًا: بأنه عبد مربوب لله ﷻ.

فلا بد من التسليم التام في باب القدر، ولا ينبغي أن يُعارَض القدر بمثل هذه

الأمور، ويُقال "كيف"؛ فربنا ﷻ: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

فالخلق خلقه، والملك ملكه، فأنت عبد مربوب؛ فعليك أن تُسَلِّم أمرك لله ﷻ

الجواب عن السؤال سيكون من وجوه، وهى:

((الوجه الأول)):

الذى فى ملك الله ﷻ مما لا يحبه الله ﷻ فهو مبغوض لله من وجه، ومحبوب

إليه من وجه آخر؛ لما يترتب على ذلك من حِكَم وخيرات عظيمة.

((سؤال)):

وهل يصح أن يكون الشيء محبوبًا ومبغوضًا فى نفس الوقت؟

((الجواب)):

نعم، قد يكون الشيء محبوبًا ومبغوضًا فى نفس الوقت، فلا منافاة بين بُغْض الشيء وما يترتب علي هذا الشيء من خيرات عظيمة، وهذا له صور وأمثلة، ومنها:

المثال الأول:

رجل أراد أن يحج بيت الله الحرام، فماذا سيفعل ؟

سينفق الأموال، ويتكبَّد مشقة السفر، وقد يسافر عن طريق البحر، وقد يتعرض أثناء هذا السفر للغرق أو الهلاك، أو السرقة خاصة..... إلخ، وقد قال النبي ﷺ: ((السَّفَرُ قطعةٌ مِن العَذابِ .....)) [1].

والإنسان بفطرته يبغض التعب والنصب، لكن هذه الأمور المبغوضة ستوصله

([1]) ـ رواه البخاري (1804)، ومسلم (1927).

بفضل الله إلى أمر محبوب، وهو أداء فريضة الحج والعمرة [1]، والتمتع ببيت الله الحرام.

المثال الثانى:

لو أن رجلًا دبَّت الغَرْغَرِينَا [2] فى رجله، فماذا سيصنع ؟

سيذهب للطبيب، ويدفع له الأموال؛ ليقوم هذا الطبيب ببتر القدم، وهذا شيء مبغوض من وجه؛ لأن فيه بترًا للقدم، وفيه إعاقة عن المشي والتحرك، ولكنه سيوصل لأمر محبوب، وهو الحفاظ على باقي البدن من الموت.

المثال الثالث:

المريض عندما يتناول دوائه الكريه المُر، اجتمع له أمر محبوب وأمر مبغوض: فهو يشرب الدواء المر وطعمه مبغوض؛ لأجل المصلحة، وهي: الشفاء.

([1]) ـ هذا بناء على وجوب العمرة، والقول بوجوب العمرة قال به طائفة من الصحابة، وطائفة من السلف، وهو الأظهر عند الشافعية، وهو مذهب الحنابلة، وهو مذهب الظاهرية.

([2]) ـ هي نوع من أنواع موت الأنسجة الناجم عن عدم كفاية إمدادات الدم، وقد تشمل الأعراض تغيرًا في لون الجلد إلى الأحمر أو الأسود، والتورم والألم وبرودة الجلد ووقوعه، وقد تظهر أنواع معينة مصاحَبة بالحمى أو تعفن الدم وحدوث الغرغرينا في الأيدي والأرجل، هو الأكثر شيوعًا.

سؤال: قد يُقال: لكن هذه أمثلة تتعلق بالبشر، ولا تتعلق بالله ﷻ فهل هناك مثل بالنسبة لاجتماع المحبوب والمبغوض لله ﷻ.

((الجواب)):

هناك أمثلة كثيرة، ومنها: قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ:

((..... وما تَرَدَّدْتُ [1] عن شيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المؤْمِنِ، يَكْرَهُ المؤْتَ وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ)) [2].

وهنا قد اجتمع محبوب ومكروه لله ﷻ

المحبوب: إثابة العبد المؤمن، ومجازاته بالحسنى وزيادة.

([1]) ـ **سؤال:** وهل التردد صفة لله ﷻ؟

((الجواب)): التردد ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: تردد بسبب جهل العواقب: كمن يتردد في الخوض في مسألة لأجل جهله بعاقبتها، وهذا تردد فيه نقص يُنزَّه عنه الله ﷻ، ولا يتصف به لكمال علمه ﷻ

القسم الثاني: تردُّد بسبب اجتماع أمر محبوب والآخر مبغوض، فيريد الفعل لأجل الأمر المحبوب، ويكرهه لما فيه من الأمر المبغوض، وهذه صفة كمال يتصف بها ربنا ﷻ كما في هذا الحديث.

([2]) ـ رواه البخاري (6502).

والمكروه: أن هذا لا يحدث إلا بقبض روحه وموته ومعاناة السكرات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ:

((وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ قَضَى بِالْمَوْتِ: فَكُلُّ مَا قَضَى بِهِ فَهُوَ يُرِيدُهُ، وَلَا بُدَّ مِنْهُ فَالرَّبُّ مُرِيدٌ لِمَوْتِهِ لِمَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَارِهٌ لِمُسَاءَةِ عَبْدِهِ، وَهِيَ الْمُسَاءَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بِالْمَوْتِ، فَصَارَ الْمَوْتُ مُرَادًا لِلْحَقِّ مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا لَهُ مِنْ وَجْهٍ وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّرَدُّدِ، وَهُوَ :أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ مُرَادًا مِنْ وَجْهٍ مَكْرُوهًا مِنْ وَجْهٍ وَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مِنْ تَرَجُّحِ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ كَمَا تَرَجَّحَ إرَادَةُ الْمَوْتِ، لَكِنْ مَعَ وُجُودِ كَرَاهَةِ مُسَاءَةِ عَبْدِهِ، وَلَيْسَ إرَادَتُهُ لِمَوْتِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يُحِبُّهُ وَيَكْرَهُ مُسَاءَتَهُ كَإِرَادَتِهِ لِمَوْتِ الْكَافِرِ الَّذِي يُبْغِضُهُ وَيُرِيدُ مُسَاءَتَهُ)) [1].

((الوجه الثاني)):

هناك فرق بين ما يحبه الله جَلَّ جَلَالُهُ وبين ما يريده الله جَلَّ جَلَالُهُ

([1]) ـ مجموع الفتاوى (18 / 131) ط (مكتبة ابن تيمية لإحياء كتب التراث).

فإن قيل: يبقى السؤال:

هذه الأشياء التى لا يحبها الله ويبغضها كيف تكون موجودة فى هذا الكون بإرادة الله ﷻ ومشيئته ؟

((الجواب)):

نقو:ل لأن هناك مسألة وهى من أهم المسائل، وهى أصل أصيل فى ضلال أهل البدع فى باب القدر، وهي:

أنهم خلطوا ما بين الإرادة وما بين المحبة والرضا:

فهناك فرق بين ما يحبه الله ﷻ وبين ما أراده الله ﷻ إذ إنَّ الإرادة أعم من المحبة والرضا، فهناك إرادة شرعية وهناك إرادة كونية، وقد فصلنا الفرق بينهما في مطلع الشرح [1] ، وإليك نبذة عنهما:

([1]) ـ وذلك لأن هذا الجزء مُفرغ من شرح كتاب القدر بالكامل في دورة علمية سابقة، وقد تم تفريغه وإضافة أشياء ومباحث له، وصار عنوانه ((المختصر في مباحث القدر)) ييسر الله ﷻ بطباعته إن شاء الله.

ضابط الإرادة الشرعية والكونية:

الإرادة الشرعية لها ضوابط، ومنها:

((الأول)):

أن تكون فيما يحبه الله ﷻ ويرضاه.

((الثاني)):

أنها قد تقع، وقد لا تقع.

الإرادة الكونية لها ضوابط، ومنها:

((الأول)):

أن تكون فيما يحبه الله ﷻ ويرضاه، وفيما لا يحبه الله ﷻ.

((الثاني)):

أنها لابد أن تقع حتمًا.

نبذة في التفريق بين الإرادة الشرعية والإرادة الكونية:

هناك فرق بين ما يحبه الله ﷻ وبين ما يريده الله ﷻ، إذ إنَّ الإرادة أعم من المحبة والرضا؛ فإرادة الله ﷻ تنقسم إلى:

إرادة شرعية دينية

وإرادة كونية قدرية

وهناك فوارق بين الإرادة الشرعية والكونية [1]، وإليك هذه الفوارق:

((الفارق الأول)):

الإرادة الشرعية: تكون فيما يحبه الله ﷻ ويرضاه (في الخير).

((مثال)):

أَمْرُ الله ﷻ ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ {الإسراء:23}

فقد أمر الله ﷻ ببر الوالدين، وهذا من الأمر الشرعي أو من القضاء الشرعي

([1]) ـ ليست المسألة قاصرة على الإرادة، بل هناك:
(الأمر ـ والقضاء ـ والإذن ـ والحكم ـ والتحريم ـ والبعث ـ والإرسال ـ والكتاب ـ والكلمات)
فكل ما سبق منه الشرعي والكوني، وستأتي في الأمثلة بعض هذه المذكورات.

أو من الإرادة الشرعية؛ لأن الله يحب التعبُّد له، ويحب بر الوالدين.

والإرادة الكونية: تكون فيما يحبه الله ﷻ ويرضاه، وفيما لا يحبه الله ﷻ كوجود الظلم والفسق ..... إلخ.

قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾

هذه إرادة كونية ((لأن الفسق لا يحبه الله ﷻ)) ولكنه أراده كونًا.

((الفارق الثاني)):

الإرادة الشرعية: قد تقع، وقد لا تقع.

مثل: ((**توحيد الله، والإيمان به، وبر الوالدين، وأداء الأمانات** ..... إلخ)).

فهذه أمور قد تقع، وقد لا تقع؛ فليس كل الناس يوحدون الله ويؤمنون به، وليس كلهم يبرون آبائهم وأمهاتهم، وليس كلهم يؤدون الأمانات.

الإرادة الكونية: لابد أن تقع حتمًا، ولا يخرج عنها لا البَرُّ ولا الفاجرُ.

((الفارق الثالث)):

الإرادة الشرعية ــأو القضاء الشرعي، أو الأمر الشرعيــ يكون مقصودًا لذاته،

يحبه الله ﷻ لذاته: كأمر الله ﷻ بالإيمان به وبالطاعات والصلاة والذِّكْر.....إلخ.

فهذا أمر شرعي؛ لأنه مقصود لذاته.

الإرادة الكونية ـ سواء أكان قضاء أم أمرًا ـ فهذا ليس مقصودًا لذاته

مثال: ((**خلق إبليس**)) الله ﷻ لم يخلق إبليس؛ لأنه يحبه، وإنما خلقه ﷻ لشيء آخر وحِكَم أخري (وسيأتي معنا سؤال: ما الحكمة من خلق إبليس؟) [1]

((الفارق الرابع)):

الإرادة الشرعية: تتعلق بألوهية الله ﷻ وعبادته وشرعه.

الإرادة الكونية: تتعلق بربوبية الله ﷻ وخلْقه؛ لأنها شاملة لجميع المخلوقات.

((مثال)):

كما قوله ﷻ: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾

{الإسراء:16} فالفسق لا يحبه الله، وهذا أمر كوني قدري.

---

(1) ـ انظر: (صـ 134)

((جدول تمثيلي لتقريب الفارق بين الشرعي والكوني))

((الإرادة الشرعية))	((الإرادة الكونية))
تكون فيما يحبه الله ويرضاه (الإيمان بالله، والخيرات، الطاعات)	**تكون فيما يحبه الله، وما لا يحبه الله**
قد تقع، وقد لا تقع، مثل: (الإيمان بالله، بر الوالدين، العدل)	**لابد أن تقع لا محالة** (وجود الكفر والظلم والفسق [1]..)
تتعلق بألوهية الله ﷻ وشرعه	**تتعلق بربوبية الله ﷻ وخَلْقه** (ولا يخرج عنها البَرُّ ولا الفاجر)
يكون مقصودًا لذاته، مثل: (الأمر بالطاعات)	**ليس مقصودًا لذاته، مثل:** (خلق إبليس)

([1]) ـ ولا يُفْهَم من ذلك أن الإرادة الكونية تتعلق بالشر فقط، ولكن كل ما وقع في الكون فقد أراده الله كونًا، وقد يكون بعضه مُرادًا شرعًا مثل: ((إيمان المؤمن)) فقد أراده الله شرعًا وكونًا.

((تطبيقات وصور وأمثلة على الشرعي والكوني))

1 ـ الأمر: منه الشرعي، ومنه الكوني:

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ {النساء:58}

هذا أمر شرعي ((لأنه قد يقع، وقد لا يقع ـ فمن الخلق مَن لا يؤدي الأمانة ـ)).

ومنه قوله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ {النحل:90}

هذا أمر شرعي.

قال الله ﷻ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾

هذا أمر وإرادة كونية ((لأنها واقعة لا محالة))

2 ـ الإرادة: منها الشرعية، ومنها الكونية:

قال الله ﷻ: ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ ﴾

هذه إرادة شرعيه دينية ((لأن الله يحب التوبة، ولأنه ليس كل العباد يتوبون))

قال الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾

هذه إرادة كونية ((لأن الفسق لا يحبه الله ﷻ)).

3 ـ القضاء: منه الشرعي، ومنه الكوني:

قال الله ﷻ: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ {الإسراء:23}

هذا قضاء شرعي ديني ((لأنَّ التوحيد يحبه الله ﷻ، ولم يقم به كل الناس))

قال الله ﷻ: ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ {الإسراء:4}

هذا قضاء كوني ((لأن الفسق لا يحبه الله ﷻ)).

ومنه قوله ﷻ: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ {فصلت:12}

هذا قضاء كوني ((لأنه واقع لا محالة)) [1].

4 ـ والإذن: منه الشرعي، ومنه الكوني:

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ {البقرة:102}

هذا إذن كوني ((لأن الله ﷻ لا يحب الضرر)).

([1]) ـ المقصود بقولنا: ((واقع لا محالة)) مع أنها أمور ماضية وقد وقعت، أنه أمر لا مجال فيه؛ لاحتمال الوقوع وعدمه؛ فهو لا احتمال في وقوعه (سواء أكان وقع في الماضي أم سيقع في المستقبل).

قال الله ﷻ: ﴿ وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾ {الأحزاب:46}

هذا إذن شرعي ((لأن الدعوة إلى الله ﷻ يحبها الله)).

5 ـ والحكم: منه الشرعي، ومنه الكوني:

قال الله ﷻ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ {الرعد:41}

هذا حكم كوني ((لأنه واقع لا محالة))

قال الله ﷻ: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ {المائدة:1}

هذا حكم شرعي ((لأنه قد يقع وقد لا يقع، ويحبه الله ﷻ))

6 ـ والتحريم: منه الشرعي، ومنه الكوني:

قال الله ﷻ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ ﴾ {المائدة:3}

هذا تحريم شرعي ((لأنه قد يقع وقد لا يقع، ويحبه الله ﷻ))

ومنه قوله ﷻ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ {النساء:23}

هذا تحريم شرعي ((لأنه قد يقع وقد لا يقع، ويحبه الله ﷻ))

قال الله ﷻ: ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ {القصص:12}

هذا تحريم كوني ((لأنه واقع لا محالة)).

ومنه قوله ﷻ:

﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ {المائدة:26}

هذا تحريم كوني ((لأنه واقع لا محالة)).

7ـ والبعث: منه الشرعي، ومنه الكوني:

قال الله ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ {الجمعة:2}

هذا بعث شرعي ديني

قال الله ﷻ: ﴿ فَإِذَا جاء وَعْدُ أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً ﴾ {الإسراء:5}

هذا بعث كوني قدري.

8 ـ والإرسال: منه الشرعي، ومنه الكوني:

قال الله ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ {الصف:9}

هذا إرسال شرعي ديني

قال الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾

{مريم:83} **هذا إرسال كوني قدري**

وكذلك الكتاب: منه الشرعي والكوني، والكلمات: منها الشرعية والكونية

((أمثلة واقعية للتطبيق والتفريق بين الإرادتين)):

وهذه بعض الأمثلة العملية فى التفريق بين الإرادتين، ومنها:

المثال الأول:

إيمان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه **، ما حكمه ؟**

((مُقدَّر شرعًا وكونًا))

مُقدَّر شرعًا: لأنَّ الله ﷻ يحب ذلك من عمر رضي الله عنه .

مُقدَّر كونًا: لأنه حدث بالفعل، وآمن عمر رضى الله عنه وأرضاه.

المثال الثانى:

إيمان أبو جهل، ما حكمه؟

((مُقدَّر شرعًا وغير مُقدَّر كونًا))

مُقدَّر شرعًا: لأنَّ الله أمره بالإيمان شرعًا، ونهاه عن الكفر.

وغير مُقدَّر كونًا: لأنه ما آمن بالله ﷻ، فكان المُقَدَّر له كونًا الكفر ــ

وهو عدل الله فيه ــ.

المثال الثالث:

هزيمة المسلمين فى غزوة أُحُد، ما حكمها؟

((مُقدرَّة كونًا، وغير مُقدرَّة شرعًا)).

مُقدَّرة كونًا: لأنَّها واقعة لا محالة، ولأنها فيما لا يحبه الله ﷻ

غير مُقدَّرة شرعًا: لأن الله لم يأمر بقتل المسلمين الأخيار، ولا يحب ذلك.

المثال الرابع:

حادثة الإفك، ما حكم حدوثها؟

((مُقدَّرة كونًا، وغير مُقدَّرة شرعًا))

مُقدَّرة كونًا: لأنها وقعت ـ لحِكَم عظيمة ـ [1]، وهي فيما لا يحبه الله ﷻ

غير مُقدَّرة شرعًا: لأنَّ الله ﷻ لم يحب ذلك.

المثال الخامس:

دخول الناس فى دين الله أفواجًا، ما حكمه؟

((مُقدَّر شرعًا، مُقدَّر كونًا))

---

(1) ـ **ومن هذه الحِكَم:**

(أ) ـ بيان فضل أمنا: أم المؤمنين رضي الله عنها .

(ب) ـ إظهار المنافقين، وبيان حالهم، وفضحهم.

(ج) ـ رفعةً لدرجات النبي صلى الله عليه وسلم ودرجات أمنا عائشة رضي الله عنها وأرضاها

(د) ـ أن نعلم أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب.

(هـ) ـ رعاية الله لأوليائه.

(و) ـ البهتان يجر إلى الهلاك.

(ز) ـ عدم إخبار المريض بما يزيد مرضه ويكدره.

(ح) ـ بيان سنة الاستشارة، وجواز استشارة الفاضل المفضول.

(ك) ـ بيان فضل الصحابة الذين دافعوا عن عائشة.

والحادثة بقصتها فيها من الحِكَم العظيمة والكثيرة التي لا يتسع المجال لذِكرها، وتُصنف فيها المجلدات.

مُقدَّر شرعًا: لأنَّ الله أمر بذلك، ويحب ذلك.

مُقدَّر كونًا: لأنه واقع لا محالة.

المثال السادس:

إصابة النبى ﷺ فى غزوة أُحُد، ما حكمه؟

((مُقدَّر كونًا وغير مُقدَّر شرعًا))

غير مُقدَّر شرعًا: لأنَّ الله ﷻ لا يحب ذلك، ولم يأمر به.

مُقدَّر كونًا: لأنه واقع لا محالة.

المثال السابع:

أمر الله المرأة بالحجاب، فماتت امرأة قبل أن تلبسه، فما حكمه؟

((مُقدَّر كونًا، وغير مُقدرَّ شرعًا))

غير مُقدَّر شرعًا: لأنَّ الله ﷻ لا يحب معصيتها وتَرْكها للحجاب.

مُقدَّر كونًا: لأنه واقع لا محالة.

المثال الثامن:

وجود مَن يُلقِي الشبهات على الدِّين والنبي ﷺ، ما حكمه؟

((مُقدَّر كونًا وغير مُقدَّر شرعًا))

غير مُقدَّر شرعًا: لأنَّ الله ﷻ لا يحب ذلك.

مُقدَّر كونًا: لأنه واقع لا محالة.

المثال التاسع:

وجود مَن يرُد على هذه الشبهات، ما حكمه؟

((هذا مُقدَّر شرعًا، ومُقدَّر كونًا))

مُقدَّر شرعًا: لأنَّ الله أمر بذلك، ويحب ذلك.

مُقدَّر كونًا: لأنه واقع لا محالة.

المثال العاشر:

رجل انتحر، ما حكمه؟

((مُقدَّر كونًا وغير مُقدَّر شرعًا))

غير مُقدَّر شرعًا: لأنَّ الله ﷻ لا يحب ذلك.

مُقدَّر كونًا: لأنه واقع لا محالة.

هذه خلاصة الكلام بإيجاز على هذه الجزئية المهمة.

نعود إلى السؤال:

كيف يكون فى ملك الله ما لا يحبه الله تبارك وتعالى؟

خلاصة الكلام وتلخيص الجواب:

((أولًا)):

الأشياء التى تكون فى ملك الله ﷻ مما لا يحبه الله ﷻ هو محبوب لله ﷻ من وجه ومبغوض لله ﷻ من وجه آخر؛ لما يترتب على هذا المبغوض من الحِكَم والخيرات العظيمة ــ كما سبق وبيناه بحول الله ﷻ ــ.

((ثانيًا)):

هناك فرق بين ما يحبه الله ﷻ وما أراده الله ﷻ، فليس كل ما أراده الله يحبه؛ إذ الإرادة أعم من المحبة والرضا، وبالله التوفيق ...

((فصل))

((في ذِكر بعض الردود المُفحِمة في الرد على منكري الإرادة الكونية))

جواب زيد بن علي رَحِمَهُ اللَّهُ:

قال الْمُطَّلِبُ بْنُ زِيَادٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ، فَقَالَ:

يَا زَيْدُ ،أَنْتَ الَّذِي تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُعْصَى؟

فَقَالَ لَهُ زَيْدٌ: ((أَيُعْصَى عَنْوَةً ؟))

قَالَ: فَأَقْبَلَ يَحْظَرُ [1].

جواب ربيعة رَحِمَهُ اللَّهُ:

قَالَ اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: قَالَ غَيْلَانُ لِرَبِيعَةَ:

يَا أَبَا عُثْمَانَ، أَيَرْضَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُعْصَى؟

فَقَالَ لَهُ رَبِيعَةُ: ((أَفَيُعْصَى قَسْرًا ؟!))

قَالَ: وَلَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَالَ: يَا أَبَا مَرْوَانَ [2].

([1]) ـ رواه اللالكائي في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) رقم ((1264)).

([2]) ـ رواه اللالكائي في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) رقم ((1265)).

جواب أبي إِسْحَاق الإسفرايني رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهي مناظرة مشهورة بَين الْأُسْتَاذ أبي إِسْحَاق الإسفرايني وَالْقَاضِي عبد الْجَبَّار المعتزلي، وفيها:

قَالَ عبد الْجَبَّار فِي ابْتِدَاء جُلُوسه للمناظرة: **سُبْحَانَ مَن تنزه عَن الْفَحْشَاء!**

فَقَالَ الْأُسْتَاذ مجيبًا: **((سُبْحَانَ مَن لَا يَقع فِي ملكه إِلَّا مَا يَشَاء))**

فَقَالَ عبد الْجَبَّار: **((أفيشاء رَبُّنا أَن يُعْصى ؟!))**

فَقَالَ الْأُسْتَاذ: **((أيُعْصى رَبُّنا قهرًا ؟!))**

فَقَالَ عبد الْجَبَّار: **((أَفَرَأَيْت إِن مَنَعَنِي الْهدى، وَقضى عَليّ بالردى، أحسن إِلَيّ أم أساء ؟!))**

فَقَالَ الْأُسْتَاذ: **((إِن كَانَ مَنعك مَا هُوَ لَك فقد أسا، وَإِن مَنعك مَا هُوَ لَهُ فَيخْتَص برحمته مَن يشا))** فَانْقَطع عبد الْجَبَّار [1].

([1]) ـ طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي (2 / 512) رقم (358).
ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

((السؤال الخامس))

هل الإنسان مُسيَّر أو مُخيَّر؟

بدايةً نقول:

ينبغي للإنسان المسلم أن يكون مستسلمًا لله ﷻ، فلا يتكلم ويتعمق فى ما لا يعود عليه بالنفع، ولا يخوض فيما لم يخُض فيه السلف رضي الله عنهم، ولذلك عن القاسم بن محمد رحمه الله أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ الْقَدَرَ، فَقَالَ:

((تَكَلَّمُوا فِيمَا سَمِعْتُمُ اللَّهَ ذَكَرَ فِي كِتَابِهِ، وَكُفُّوا عَمَّا كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ)) [1]

فهذا هو الأصل: أن يتكلم المسلم فيما تكلم فيه الله ورسوله ﷺ، ويمسك عما أمسك عنه الله ورسوله.

قال الإمام عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ صَاحِبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رحمه الله وَجَلِيسُهُ:

((عَلَى الْخَلْقِ أَنْ يُثْبِتُوا مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ، وَيَنْفُوا مَا نَفَاهُ، وَيُمْسِكُوا عَمَّا أَمْسَكَ عَنْهُ)) [2]

([1]) ـ ذم الكلام وأهله، لأبي إسماعيل الهروي، (789).

([2]) ـ شرح الطحاوية، لابن أبي العز (صـ 141) وعزاه لكتاب (الحيدة) طـ (المكتب الإسلامي) بيروت.

ولذلك السلف ما كانوا يسألون عن هذا السؤال، لكن أَمَا إنه طُرح وشاع بين الناس وحدثت فيه أغاليط، فلا بد من الجواب عن هذا السؤال.

هل الإنسان مُخيَّر أو مُسيَّر ؟

الناس يجيبون على هذا السؤال إجابات خاطئة، فمنهم مَن يقول:

إنَّ الإنسان مُسيَّر

وهذا خطأ " موافق لقول الجبرية ".

ومنهم مَن يقول أنه مُخيَّر مطلقًا

وهذا أيضًا خطأ وليس بسديد، فكلاهما خطأ.

((سؤال)): وما الصواب ؟

((الجواب)):

الصواب أنَّ الإنسان مُسيَّر مُخيَّر، أي أنَّ الإنسان مُسيَّر مجبور فى أمور معينة لا يختار هذه الأمور ولا مشيئة له ولا اختيار فيها، وهو مُخيَّر فى أمور معينة بمشيئة خلقها له الله ﷻ، وله القدرة على الفعل والاختيار، وهذا الفعل

وهذه المشيئة مخلوقه لله ﷻ، خلقها الله ﷻ فى العبد، ولا تخرج عن مشيئة الله ﷻ.

((صور وأمثلة على مسائل الإنسان مُسيَّر (مجبور) فيها)) ومنها:

أ ـ ((عائلتك)):

فأنت لم تختر والديك، وإخوتك، وعائلتك.

ب ـ ((المكان الذي وُلِدت فيه)):

فأنت لم تختر البلد التي وُلِدت فيها، ولا المحافظة، ولا المنزل الذي وُلِدت فيه.

ج ـ ((شكلك وصفاتك)):

فأنت لم تختر طولك، ولا لون بَشَرَتِك، ولا شكلك.... إلخ.

فهذه الأشياء أنت مجبور عليها، مُسيَّر فيها، ليس لك فيها اختيار، ولذلك أنتَ لا تُسْأَل عنها يوم القيامة، كما قال النبى ﷺ:((إِنَّ اللهَ لا ينظرُ إلى أَجْسامِكُمْ، ولا إلى صُورِكُمْ، ولكنْ ينظرُ إلى قُلوبِكُمْ وَأعْمَالِكُم)) [1]

([1]) ـ رواه مسلم (2564).

وهناك أشياء أخرى الإنسان مُخيَّر فيها، وله الإرادة والقدرة على الفعل، وله مشيئة واختيار، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله ﷻ، ولا تخرج عن مشيئة الله ﷻ [1]

((صور وأمثلة على مسائل الإنسان مُخيَّر فيها)) ومنها:

أ ـ ((زوجتك)):

فالإنسان يختار زوجته: هذا يختار ذات الدِّين، وهذا غرضه الجمال، وهذا يختار المال والحسَب ..... إلخ.

ب ـ ((الطاعة والمعصية)):

فالإنسان يختار فِعله، سواء فِعل الطاعات أو فِعل المحرمات ـــ والعياذ بالله ـــ يختار الجلوس في مجلس علم شرعي أو الجلوس في مجلس يشاهد المحرمات ويسمعها ويُشْرَب فيه الخمر، ويختار الذهاب إلى المسجد أو الذهاب إلى

([1]) ـ وهذا القيد أساس في منهج أهل السنة والجماعة ((أن للعبد مشيئة لا تخرج عن مشيئة الله))؛ لأنه قد يُقال: مخير، ويُقصد به أنه خلق فِعل نفسه، ومشيئته ليست تحت مشيئة الله وتخرج عنها كما قالت القدرية.

ملهى ليلي، يختار الأكل من الحرام أو الأكل من الحلال .... إلخ، فهذه الأشياء التى للإنسان فيها اختيار.

((سؤال)):

وما محل الحساب يوم القيامة ؟ هل هو على التسيير أو التخيير ؟

((الجواب)):

الإنسان يُحاسب على الاختيار الذي اختاره بأهلية فعمله، فهو يُحاسب عليه يوم القيامة، كما قال الله ﷻ:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ {التوبة:105}

ولذلك إذا ارتفع هذا الاختيار فلا تكليف، كما فى الإكراه: فالمُكْرَه الذى ليس له اختيار وُضِعَ عنه التكليف حتى لو وصل الأمر إلى أن يكفر بالله ﷻ، فإنه لا يُؤاخَذ على ذلك: كما حدث مع عمار بن ياسر ﷺ عندما أرغموه وأكرهوه على كلمة الكفر، فقالها مُكرَهًا فأنزل الله ﷻ:

﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ {النحل:106} [1]

فلذلك عندما يرتفع هذا الاختيار يسقط التكليف، والإثم لا يكون موجودًا،

ولذلك قال رسول الله ﷺ:

((إنَّ اللهَ وضَعَ عن أُمَّتي الخَطأَ والنسيانَ وما اسْتُكرِهوا عليه)) [2]

وكذلك العقل، فالمجنون غير مكلف، ولذلك قال رسول الله ﷺ:

((رُفِعَ القلمُ عن ثلاثٍ :عن النائمِ حتى يَسْتَيْقِظَ، وعن الصبيِّ حتى يَشِبَّ، وعن المعْتُوهِ حتى يَعْقِلَ)) [3]

ومن رحمة الله ﷻ أنه ((**إذا سَلَب ما وَهَب، أسقط ما أَوْجب**)).

وقد أثبت الله ﷻ مسألة الاختيار للعبد كما قال الله ﷻ:

﴿ إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾

([1]) ـ تفسير الطبري، (7 / 271) الآثار رقم (21948) : (21951) ط (دار الحديث) القاهرة.

([2]) ـ **حسن:** رواه ابن ماجه (2045) وابن حبان (7219) والطبراني في الأوسط (8273).

([3]) ـ **صحيح:** رواه أحمد (956)، والبخاري معلقًا بصيغة الجزم قبل الحديث رقم (5269)، وأبو داود (4402)، والترمذي (1423)، وابن ماجه (2042)

وفى الحديث قال ﷺ:

((إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بيْنَ الدُّنْيَا وبيْنَ ما عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ما عِنْدَ اللَّهِ ....)) [1]

وقد كلف الله ﷻ الإنسان، وألزمه بالأحكام باعتبار ما أعطاه ﷻ من العقل والإرادة والمشيئة والنظر والفهم ، فإذا فقد الإنسان هذه الأشياء بالعجز أو الإكراه لم يعُد مُكلَّفًا.

((خلاصة الكلام)):

نقول: إن الإنسان مُسيَّر في أمور، ومُخيَّر في أمور، وفى الجملة: هو مُيسَّر لما خُلق له كما قال النبى ﷺ: ((اعمَلوا، فكلٌّ مُيسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له)) [2].

بيان أوجه الأجوبة الصحيحة والخاطئة عن السؤال:

هل الإنسان مُسيَّر أو مُخيَّر ؟

1 ـ مُخيَّر مطلقًا ((جواب باطل خطأ)) **وهو قول القدرية** [3].

([1]) ـ متفق عليه: رواه البخاري (466)، ومسلم (2382).

([2]) ـ رواه أحمد (14258)، ومسلم (2648).

([3]) ـ على التفصيل الذي ذكرناه في أقسام القدرية، وأنهم على ثلاث طوائف، انظر: (صـ 26).

2 ـ مُسيَّر مجبور مطلقًا ((جواب باطل خطأ))، **وهو قول الجبرية**.

3 ـ مُسيَّر في أمور ومُخيَّر مطلقًا في أمور ((جواب باطل خطأ)).

4 ـ مُسيَّر في أمور، ومُخيَّر في أمور، واختياره ومشيئته لا تخرج عن مشيئة الله

((هذا هو الجواب السديد الصحيح))، **وهو قول أهل السنة والجماعة**.

((مسألة)):

هل لفظا (مُسيَّر) و(مُخيَّر) وردا في النصوص الشرعية ؟

أما لفظا (مُخيَّر) و(مُسيَّر) فلم يرِدا فى الكتاب ولا فى السنة ــ فيما أعلم ــ والذي دلت عليه النصوص الشرعية أنَّ الإنسان له مشيئة واختيار كما قال الله ﷻ: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴾

وهذه المشيئة والاختيار تابعة ومحكومة بمشيئة الله ﷻ كما قال ﷻ:

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

فليس للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الله ﷻ كما سبق وبيَّناه ــبفضل اللهــ

وبالله التوفيق.

((السؤال السادس))

هل الإيمان بالقدر يتعارض مع كون الإنسان صاحب مشيئة ؟

نقول: عقيدة الإيمان بالقدر لا تتنافى مع كون الإنسان صاحب مشيئة وهو مُخيَّر في فِعله ـــ بضوابطه ـــ كما سبق وبيناه فى المسألة السابقة.

نقول: **هناك أصل مهم، وهو:**

أنَّ لله ﷻ المشيئة النافذة ((**فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن**))

ولا يحدث فى هذا الكون شيء إلا بمشيئة الله ﷻ:

((برهان ذلك)):

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ {يس:82}

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى ﴾ {الأنعام:35}

و قال الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ {هود:118}

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾

{يونس:99}

وقال الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

{البقرة:253}

قال الله ﷻ: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ {السجدة:13}

فهذه نصوص قطعية في أنَّ الله ﷻ له المشيئة النافذه فى هذا الكون ﷻ،

فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

((نعود إلى السؤال)):

هل الإيمان بالقدر –ومنه: الإيمان بمشيئة الله النافذة– يتعارض مع كون الإنسان صاحب مشيئة ؟

((الجواب)):

نقول: قد أثبت الله ﷻ للعبد المشيئة فى آيات كثيرة فى كتابه، ومنها:

قال الله ﷻ: ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ {الكهف:29}

وقال الله ﷻ: ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ {البقرة:223}

وقال الله ﷻ متوعدًا الذين يشركون به:

﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ {الزمر:15}

وقال الله ﷻ فى تهديد ووعيد آخر:

﴿ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ {فصلت:40}

و قال الله ﷻ فى إثبات مشيئة العبد:

﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ {المدثر:37}

وقال الله ﷻ: ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾ {الإنسان:29}

ولذلك نقول: العبد له مشيئة وإرادة، ولكن هذه المشيئة والاختيار والإرادة التى وهبها الله ﷻ إياه، هى مشيئة تابعة لمشيئة الله، وتحتها، ولا تخرج عن مشيئته ﷻ.

((برهان ذلك)):

ما ذكره ربنا ﷻ في عدة مواضع من كتابه، منها:

قال الله ﷻ: ﴿ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ {المدثر:56}

قال الله ﷻ: ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ {الإنسان:29:30}

قال الله ﷻ: ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ {التكوير:28:29}

فهذه النصوص واضحة جلية بأن للعبد مشيئة تابعة لمشيئة الله، ولا تخرج عنها.

((إشكال)):

فإن قيل: ما دامت مشيئة العبد داخله تحت مشيئة الرب ﷻ، ولا تخرج عنها فَعَلام يعاقب ربنا تبارك وتعالى العباد ؟

((الجواب)):

هذه من المسائل المشْكِلة فى باب القدر، وسنفرد الكلام عن هذا السؤال في سؤال ومبحث مستقل [1].

ولكن سنضرب لك مثالًا واحدًا يبين لك الجواب عن هذا الإشكال المذكور

([1]) ـ انظر: (صـ 186)

إجمالًا ــ وسيكون التفصيل أكثر في المبحث المستقل المتعلق بهذا السؤال إن شاء الله ــ.

((مثال لحل هذا الإشكال)):

رجل يقود سيارة

فوجد أمامه طفلًا يلعب فى الطريق، فأوقف العجلات حتى لا يَصْدِم هذا الطفل.

ورجل آخر يقود سيارة

وجد أمامه طفلًا يلعب بالطريق، فدهسه عامدًا متعمدًا.

((سؤال)): فهل كلٌّ منهما فعل ما أراده الله تبارك وتعالى شرعًا ؟

((الجواب)):

لا؛ فهذا الذى أوقف السيارة ولم يدهس الطفل: قد فعل ما أراده الله ﷻ كونًا وشرعًا، وهذا الثانى الذى دهس الطفل: فعل ما أراده الله كونًا، ولم يفعل ما أراده الله شرعًا.

((سؤال)):

هل هذا الذى أوقف السيارة يستوي فِعله مع الذى دهس الطفل عامدًا متعمدًا ؟

((الجواب)):

لا يستويان قطعًا؛ فعند العقلاء الفرق ظاهر واضح لكل ذي عقل؛ فهذا الذى دهس الطفل فعل ذلك مختارًا، وهذا الذى أوقف عجلات السيارة فعل ذلك مختارًا، وفِعل الأول ليس كفِعل الثاني، ولذلك مَن أوقف السيارة فِعله ممدوح، والذي دهسه عمدًا يستحق العقاب.

((سؤال)):

هل لو كان الطفل ولدك [1] وقال لك الذى دهس الطفل عامدًا متعمدًا: لا عتْبَ عليَّ؛ فإني قد فعلتُ مشيئة الله وما أراده كونًا؟

([1]) ـ أسأل الله أن يعافي أولادنا وأولاد المسلمين، إنما ذكرت ذلك على سبيل الزيادة في التأثير في الجواب والبيان، وهو على سبيل المثل والتعليم؛ حتى لا يُعارض بما ورد عن جماعة من الصحابة والسلف: ((البلاء مُوكَل بالكلام)) عافانا الله وإياكم!

فهل ستقبل منه هذا التبرير ؟

وهل ستعافيه من تفريطه بفلذة كبدك، أو أنك سترد عليه مقالته ؟

((الجواب)):

أي عاقل لن يقبل منه هذه الحجة وهذا التبرير الباطل المنكر، ولو رُفع الأمر للقاضي وذكر الجاني هذه الحجة، فلن يقبلها منه، وسيعاقبه بما يتناسب شرعًا مع جريمته.

((السؤال الذي سيحل الإشكال)):

فإذا كنت أنت أيها العبد المسكين لا تقبل هذه الحجة، وتَرُدُّهَا على قائلها، ولا قيمة لها عندك -**فكيف تريد أن يقبلها الله ﷻ من الكافرين والمجرمين والفاجرين والعاصين ؟!**

وسيأتي بإذن الله مزيد من الجواب عن هذا الاستشكال في السؤال الأخير[1]

وبالله التوفيق ...

([1]) ـ انظر: (صـ 186).

((خلاصة الكلام)):

الإيمان بالقدر لا يتعارض أبدًا مع كون الإنسان صاحب مشيئة، لكن هذه المشيئة إنما هى متعلقه بمشيئة الله ﷻ ولا تخرج عن مشيئته ﷻ، ولذلك أثبت الله ﷻ الاختيار للعبد كما قال الله ﷻ: ﴿ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴾

وفى الحديث قال النبي ﷺ:

((إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بيْنَ الدُّنْيَا وبيْنَ ما عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ما عِنْدَ اللَّهِ ...)) [1].

وهذه المسألة ظاهرة خلافًا للجبرية الذين يقولون أنَّ:

" الإنسان كالريشة فى الهواء، وأنه مجبور على فِعله ".

والجبرية أقسام:

منهم: الجبرية الغلاة: كالجهمية، ومنهم: الجبرية المتوسطة: كالأشعرية، وقد بيَّنا الفرق بينهما، وذكرنا أصولهم ودلائلهم بفضل الله تبارك وتعالى [2].

([1]) ـ رواه البخاري (466)، ومسلم (2382).

([2]) ـ لأن هذا جزء من شرح باب القدر، وقد ذكرنا الجبرية وأقسامها أثناء الشرح.

((السؤال السابع))

ما الحكمة من وجود الكفر ؟

البعض يسأل ويقول:

لماذا خلق الله الناس مؤمنين وكافرين ؟

ولماذا لم يخلق الله ﷻ الجميع مسلمين ؟

وما الحكمة من وجود الكفر مادام الله يبغضه ؟

نقول: لا شك أن الكفر مبغوض لله ﷻ ولا يرضى به؛ قال الله ﷻ:

﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ {الزمر:7}

((والسؤال)):

إذا كان هذا الكفر مبغوضًا لله ﷻ فلماذا قدَّره الله ﷻ ؟

((الجواب)):

الرد على ذلك من وجهين إجمالًا وتفصيلًا:

((الرد الإجمالي)):

((أولًا)):

نقول ــ كما سبق ــ أنَّ الله ﷻ: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

فالخلق خلقه والملك ملكه يفعل ربنا ﷻ ما يشاء دون سؤال.

((ثانيًا)):

ينبغي ولابد للمسلم فى أبواب القدر أن يستحضر المسلم عدل الله ﷻ التام

وكمال أفعاله ﷻ وأنه لا يظلم الناس شيئًا لكمال عدله ﷻ كما قال ﷻ:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {النحل:118}

قال الله ﷻ:﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {النحل:33}

قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ

مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ {النساء:40}

قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

{يونس:44}

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ {الزخرف:76}

فربنا ﷻ لا يظلم الناس شيئًا.

((ثالثًا)):

الله ﷻ لا يفعل الأشياء إلا لحكمة عظيمة، ولا يقدر المقادير إلا لحِكَم جليلة، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها، ويكفيك أخي المسلم أن تعرف أنَّ أفعال الله ﷻ تكون لحِكَم جليلة وعظيمة، وهذه المعرفة الإجمالية فى مسألة الحكمة تكفيك.

هذا الجواب الإجمالي، وإليك الجواب التفصيلي:

((الرد التفصيلي)):

أن فى وجود الكفر حِكَمًا عظيمة، ومنها:

1- ظهور صدق المؤمنين:

حيث إنهم سيعبدون ربهم ﷻ فى وسط بيئة مملوءة بالمعاصي والكفر والشر، فيظهر بذلك جليًا صِدْقُ المؤمنين ــ بفضل الله تبارك وتعالى ــ.

2- وجود عصاة وكفار يسيئون ويشركون، ثم يتوبون:

فيتوب ربنا ﷻ عليهم كما عند مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لو لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ، فَيَغْفِرُ لهمْ)) [1].

فهذا من الحِكَم أن يكون هناك كفار، ومَن يفعل الشرور والظلم، ثم بعد ذلك يتوبون، فيتوب ربنا الرحيم ﷻ عليهم.

4- إظهار الله تبارك وتعالى لعباده حِلْمَه وصَبْرَه:

فإذا كان ربنا ﷻ يصبر على الفَجَرة المشركين والكفار الذين يتجرؤون على: القتل، وهتْك الأعراض، والكفر بالله، ومحاربة الموحدين، وسب الله ﷻ...إلخ. فربنا ﷻ يحلُم ويصبر عليهم؛ لعلهم يتوبون ويرجعون إليه ﷻ، فإذا رأى العبد ذلك _ أن هناك من العباد مَن يكفرون بالله ﷻ، ويسبون الله ﷻ ليل نهار، ويَدَّعُون أنَّ له الولد والشريك، ويصرفون ألوان العبادات لغيره ﷻ وهو يرزقهم،

([1]) ـ رواه مسلم (2749).

ويمدهم بالأموال والمتاع ــ، إذا رأى العبد ذلك ظهرت أمامه آثارُ حلم الله ﷻ وصبره ﷻ.

وفي ذلك يقول النبي ﷺ:

((لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ)) [1].

فتأمل في عظيم صبره ﷻ !!

وتخيل معى هذا المثل:

لو أنك تسكن فى بيت، وهذا البيت فيه رجل يشتمك ويسبك كل يوم؛ فماذا ستصنع ؟

قد تصبر عليه يومًا أو يومين، ولكنك بلا شك ستتجرأ عليه بعد ذلك، وربما ضربته، وانتقمت منه ــ وهو مخلوق مثلك ــ وأما الله ﷻ ــ وهو الخالق ــ: يسبه النصارى ليل نهار ــ وهم عبيده ــ كما قال ﷺ فيما يرويه عن ربه

([1]) ـ رواه مسلم (2804).

ﷻ: ((قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: كذَّبني ابنُ آدمَ ، ولم يَكن ينبغي لَهُ أن يُكذِّبني، وشتَمني ابنُ آدمَ، ولم يَكن ينبغي لَهُ أن يشتُمَني، أمَّا تَكذيبُهُ إيَّايَ: فقولُهُ: إنِّي لا أعيدُهُ كما بدأتُهُ، وليسَ آخِرُ الخلقِ بأعزَّ عليَّ من أوَّلِهِ، وأمَّا شتمُهُ إيَّايَ: فقولُهُ : اتَّخذَ اللَّهُ ولدًا، وأنا اللَّهُ الأحدُ الصَّمدُ، لم ألِدْ ولم أُولَدْ، ولم يَكن لي كفُوًا أحدٌ)) [1].

تعالى الله ﷻ عن ذلك علوًا كبيرًا، فتأمل في عظيم صبر الله ﷻ وحلمه؛ فربنا ﷻ صبور [2]، ولا أحد أصبر من الله ﷻ

فإذا علم العبد ذلك ظهر أمامه حلم الله ﷻ وصبره، وتذكر العبد معاصيه،

---

(1) ـ رواه أحمد (9114)، والبخاري (4974)، والنسائي (2078) واللفظ له.

(2) ـ وقد اختلف العلماء في إثبات هذا الاسم (الصبور) لله ﷻ، فأكثر العلماء على إثباته؛ لأنه ورد في رواية الترمذي والبيهقي وابن حبان التي فيها عَدُّ الأسماء، فَمن صحت أو ثبتت عنده هذه الرواية قال بأن (الصبور) من أسماء الله، ولأنه ورد عند مسلم: ((لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله .....)) فَمن قال بالاشتقاق ـ المُختلَف فيه بضوابط ـ قال بأنه من أسماء الله،

ومن العلماء مَن لم يثبت هذا الاسم لله ﷻ؛ لأن رواية الترمذي ضعيفة لم تصح، وثبوته من رواية مسلم يتعلق بالاشتقاق، وهو عندهم لا يجوز، فلم يثبتوه من أسماء الله ﷻ، ولعل هذا القول أقرب.

ومعنى الصبور: الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام.

وتذكر ذنوبه، وتذكر تقصيره، وتذكر حلم الله وصبره عليه، مع قدرته ﷻ على الانتقام من هؤلاء الذين يتجرؤون عليه ﷻ، وهذا يجعل المؤمن يطمع في رحمة الله.

فإذا **كان الله ﷻ يتعامل مع الكافرين المشركين بهذه الطريقة، فكيف يتعامل ﷻ وتعالى مع عبده المؤمن ؟!**

5- ظهور لُطف الله عز وجل بعباده المؤمنين:

فتظهر نصرة الله ﷻ لهم وتدبير أمورهم، وتأمل ما حدث مع موسى ﷺ وفرعون عندما أمر الله ﷻ موسى ﷺ أن يخرج بقومه بعيدًا عن فرعون، وإذا بفرعون يأتي بالعدة والعتاد، يأتي بجيش جَرَّار مُدَجَّج بالأسلحة كما قال الله ﷻ: ﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴾ {الشعراء:60}

فما الذى حدث ؟

﴿ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ {الشعراء:61}

تخيل وعِش معى هذا المشهد: وكأنك واحد من بنى إسرائيل، والبحر من أمامك، وفرعون وجنوده من خلفك، جاء ليبطش بهؤلاء المستضعفين، فالأمر مُنتَهٍ بحسابات الدنيا الحسية " إنا لمدركون "، لكن انظر إلى تدبير الله ﷻ ونصرته ﷻ لعباده المؤمنين ولُطفه ﷻ، وكيف أنَّ الله خيرُ الماكرين، مَكَر بهذا الفرعون الكافر﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ فقال موسى ﷺ يقينًا فى الله ﷻ بأنه يدبر أمور المؤمنين الموحدين

﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ {الشعراء:62}

الله أكبر ! ياله من يقين، يقولها بملئ فيه ﷺ ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ فأمر ربنا ﷻ موسى ﷺ أن يضرب بعصاه البحر، وشق ربنا ﷻ لبنى إسرائيل طريقًا فى البحر يبسًا، وأهلك فرعون ومَن معه أجمعين !

فانظر إلى تدبير الله ﷻ ونصرته لعباده المؤمنين المستضعفين، فهذا لا يظهر إلا مع وجود الكفر.

6- ظهور الكثير من العبادات:

فهناك عبادات ما كانت لتظهر إلا مع وجود الكفر والشرك، ومن هذه العبادات:

أ ـ عبادة الجهاد فى سبيل الله ﷻ

وهى من أَجَلّ العبادات، هذه العبادة الجليلة التى يُكْتَب بها للشهيدِ الأجرُ العظيم والثواب الجزيل عند الله ﷻ كما قال النبي ﷺ:

((للشهيدِ عندَ اللهِ سبعُ خِصالٍ: يُغفرُ لهُ في أوَّلِ دُفعةٍ من دَمِه، ويُرَى مَقعدَهُ من الجنةِ، ويُحلَّى حُلَّةَ الإيمانِ، ويُزوَّجُ اثنينِ وسبعينَ زوجةً من الحُورِ العينِ، ويُجارُ من عذابِ القبرِ، ويأمَنُ الفزعَ الأكبرَ، ويُوضَعُ على رأسِه تاجُ الوقارِ: الياقُوتةُ مِنهُ خيرٌ من الدنيا وما فيها، ويُشفَّعُ في سبعينَ إنْسانًا من أهلِ بيتِهِ)) [1].

وهذه العبادة ما كانت لتظهر لولا وجود الكفر.

([1]) ـ **صحيح:** رواه أحمد (17182)، والترمذي (1663)، وابن ماجه (2799).

ب ـ عبادة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام:

كما حدث مع الصحابة رضي الله عنهم عندما أمرهم ربنا سبحانه وتعالى بالهجرة، فتركوا الديار والأهل والأوطان والأموال ... إلخ، لله جل جلاله، تركوا كل شيء لله جل جلاله، من أجل الدِّين: من أجل العقيدة، هاجروا من مكة إلى المدينة حتى أعلى الله جل جلاله منارة الإسلام، وظفر المسلمون بعد ذلك، وبعدما خرجوا من مكة رجعوا إليها بفضل الله جل جلاله، وفَتَحَها نبينا صلى الله عليه وسلم فى مشهد مهيب عندما دخل النبى بعشرة آلاف [1] من الجنود المسلمين الذين اختلطت العقيدة بدمائهم وعظامهم ولحومهم، فدخل النبى صلى الله عليه وسلم مكة بفضل الله تبارك وتعالى فاتحًا إياها بغير قتال كما في الصحيح: قال ابن مسعود رضي الله عنه :

دَخَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ وحَوْلَ البَيْتِ سِتُّونَ وثَلَاثُ مِئَةِ نُصُبٍ، فَجَعَلَ طْعُنُهَا بعُودٍ في يَدِهِ، ويقولُ: ((جَاءَ الحَقُّ، وزَهَقَ البَاطِلُ، إنَّ البَاطِلَ كانَ زَهُوقًا))

([1]) ـ شرح معاني الآثار (3 / 244) رقم (5327)، والحديث سنده صحيح، ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

((جَاءَ الحَقُّ، وما يُبْدِئُ البَاطِلُ وما يُعِيدُ)) [1].

فلولا وجود الكفر ما ظهرت هذه العبادة العظيمة _: الهجرة من أرض الكفر إلى أرض الإسلام _ وما ظهرت تضحية المسلمين بكل شيء لله ﷻ.

ج ـ عبادة دعوة الناس إلى لا إله إلا الله:

فلولا وجود الكفار لما كانت هناك دعوة إلى التوحيد [2]، وما كان هناك مَن يقومون بدعوة غير المسلمين إلى توحيد الله، وإلى دين الله ﷻ.

د ـ عبادة الصبر على أذى المشركين:

من حِكَم وجود الكفار ظهورُ عبادة الصبر على أذى المشركين: أذى بالكلام والقتال والتشريد والتجويع للمؤمنين، وكذلك أذى إلقاء الشبهات على دين الإسلام؛ فعندما يحدث ذلك يخرج مَن يقاتل عن دين الله ﷻ، ويخرج أيضًا مَن يرد على هذه الشبهات.

---

(1) ـ رواه البخاري (4720)، ومسلم (1781).

(2) ـ وليس معنى هذا أن الكلام على التوحيد لا يكون إلا بين الكفار، بل المقصود دعوة غير المسلم للتوحيد.

هـ ـ اصطفاء الله:

فبوجود الكفار والحرب بينهم والموحدين المسلمين، يصطفي الله ﷻ مَن يشاء من خلقه؛ ليكونوا شهداء كما سبق وبيَّنا ذلك بفضل الله.

و ـ خلق الأضداد " الأشياء المتناقضة ":

مثل: الإيمان والكفر: فيظهر حُسْنُ الضِد بظهور خلافه، فلولا الليل ما عُرف النهار، ولولا الشر ما عُرف الخير، فعندما يرى الإنسان الكافرين الذين يعبدون غير الله يعرف نعمة التوحيد.

فَلَكَ أن تتخيل أن فى الهند في ولاية **"راجستان"**

فيها معبد لعبادة الفئران من دون الله ﷻ، تُبْنَى المعابد الضخمة، ويُنفق عليها الكثير من الأموال من أجل أن يُعبد الفأر من دون الله ﷻ !!

فعندما ترى هذا الكفر تعلم أنك فى نعمة عظيمة، وتقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، وقد صدق مَن قال:

ماذا فقد مَن وجد الإسلام ؟! وماذا وجد مَن فقد الإسلام ؟!

8- ألا يأمن الإنسان على نفسه:

بمعنى أن الإنسان لا يأمن من مكر الله ﷻ إذا رأى الإنسان أنه معه فى هذا الكون مَن يشركون بالله ﷻ ومَن كفر بالله، فإنَّ هذا يحمله على الخوف على نفسه، فكما وقع هؤلاء فى الكفر فما يدريني: لعلى أيضًا أقع فيما وقعوا فيه، وهذا يحمله على عدم الأمن من مكر الله ﷻ.

9- وجود الولاء والبراء:

فلولا وجود الشرك والكفر ما وُجد الولاء والبراء؛ إذ إنَّ المؤمن يوالي الله ورسوله والمؤمنين، ويعادي الشرك والمشركين ولا يواليهم [1] !

([1]) ـ وموالاة المشركين: منها ما هو كفر، ومنها ما ليس بكفر، ومن صور موالاتهم:
((الرضا بكفرهم، ومدح دينهم، وعدم تكفيرهم، وتفضيلهم على المسلمين، والتحاكم إليهم، ومحبتهم ومودتهم، والركون إليهم، وإعانتهم ومناصرتهم على المسلمين، ومداهنتهم ومجاملتهم على حساب الدين، والثقة بهم واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، ومشاركتهم في أعيادهم وتهنئتهم، ومجالستهم حال استهزائهم بآيات الله، وتوليتهم المناصب المهمة التي يتحكمون بها في رقاب المسلمين، والتجسس لصالحهم ضد المسلمين ..... وغير ذلك)).
وهذه الأشياء المذكورة: منها ما هو كفر، ومنها ما هو حرام.
وإذا علمت أن موالاة المشركين: منها ما هو كفر أكبر، ومنها ما هو معصية، يظهر فُحْش غلط مَن ظن أن كل موالاة للمشركين كفر أكبر، وبنى على ذلك تكفير المسلمين بما ليس بمُكفِّر ــ والعياذ بالله ــ.

10- ظهور آثار قدرة الله ﷻ.

بمعنى أن الله ﷻ خلق الخلق على اختلافهم الذي قَدَرَه، وهو ما يلي:

أ ـ الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون (**وهم الملائكة**).

ب ـ الذين يطيعون ويعصون (**وهم أهل الإيمان والإسلام**).

ج ـ الذين يعيشون حياتهم في دركات الشرك (**وهم المشركون الكفار**).

د ـ الذين يعصون ولا يطيعون (**وهم الشياطين**).

ـ فتظهر بذلك آثار قدرة الله ﷻ بتنوُّع خلقه ﷻ.

أ ـ حيث إنه خَلَقَ من خَلْقِه الذين لا يعصونه أبدًا، ويعبدونه بلا ملل (**وهم الملائكة**).

قال الله ﷻ: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ {التحريم:6}

وكما قال النبي ﷺ:((إِنِّي أَرى ما لا ترَوْنَ، وأسمَعُ ما لا تَسمَعونَ: أطَّتِ السماءُ وحُقَّ لها أنْ تَئِطَّ؛ ما فيها مَوضِعُ أربعِ أصابعَ إلَّا عليه مَلَكٌ ساجدٌ، لو عَلِمْتم ما أعلَمُ لضَحِكْتم قَليلًا، ولبَكَيْتم كَثيرًا، ولا تلَذَّذْتم بالنساءِ على

الفُرُشاتِ، ولخَرَجْتم على -أو: إلى- الصُّعُداتِ تَجْأَرونَ إلى اللهِ)).

قال: فقال أبو ذَرٍّ: واللهِ لوَدِدْتُ أنِّي شَجرةٌ تُعضَدُ.)) [1].

ب ـ وخلق الله ﷻ أهل الإسلام الذين يوحِّدون الله ﷻ، وهم يطيعون ربهم، ويعصونه ــ لأنَّه ما من واحد منا إلا وله معاصٍ وله ذنوب، ويتوب الله علي مَن تاب، ويستر ربنا تبارك وتعالى علينا جميعًا ــ.

ج ـ وخلق الله قومًا كافرين، حياتهم دومًا فى شرك ومعاصٍ وذنوب.

د ـ وخلق الشياطين الذين يعصون ولا يطيعون.

فتأمل: خَلَق الله ﷻ الذى يطيع ويدوم على هذه الطاعة، وخلق الكافر الذى لا يطيع ربه ﷻ، وخلق ربنا ﷻ ما بين هذا وذاك: الذين يطيعون ويعصون من أهل الإسلام، فبذلك تظهر قدرة الله ﷻ وآثار خلقه، وأنه ﷻ على كل شيء قدير.

([1]) ـ حسن لغيره: رواه أحمد (21516)، والترمذي (2312)، وابن ماجه (4190)، وهذا لفظ أحمد.

((فائدة تربوية)):

عندما تعلم أنَّ هناك من خلق الله مَن لا يعصي الله، ولا يفتر عن ذِكره، ولا يمل من طاعة الله ﷻ، عندما يتدبر المسلم ذلك سيجد فوائد عظيمة، ومنها:

أ ـ عندما تتعبد لربك ﷻ، وتقوم الليل، وتفعل ألوانًا من العبادات، فتُعجب بهذه العبادة، فتتَذكَّر عبادة الملائكة الذين هم أكثر عبادةً منك، فحينها ينقطع العجب عنك لا محالة.

ب ـ عندما تستقِلُّ عدد السالكين في طريق الحق، فتُذَكِّر نفسك أنك لست وحدك، بل هناك من الملائكة خَلْقٌ كثير لا حصر لهم، يعبدون ربهم ليلًا ونهارًا، ولذلك شُرِع لنا فى الصلاة فى الركوع والسجود أن نقول:

((سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلائِكةِ والرُّوحِ)) [1] لقطع العجب، ولتذكير نفسك بأنك لست وحدك في هذا الطريق، فتأنس وحشتك من قلة السالكين.

([1]) ـ رواه أحمد (25146)، ومسلم (487)، وأبو داود (872) والنسائي (1134) ونص الحديث: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ في سُجودِه ورُكوعِه:
((سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ المَلائِكةِ والرُّوحِ)).

((السؤال الثامن))

ما الحكمة من وجود إبليس ؟

لا شك أن إبليس مبغوض وملعون من الله ﷻ

والسؤال: مع أن إبليس يوسوس للناس، ويزين لهم المعاصي، ويفسد ذات البين، ويحث الناس عل الكفر والشرك بالله ﷻ والإجرام والفجور، ويشيع الفساد فى الأرض .....إلخ.

فإذا كان من وراء إبليس هذا السوء، فما الحكمة من خلق إبليس ؟

الجواب: الرد على ذلك من وجهين: إجمالًا وتفصيلًا:

((الرد الإجمالي)):

((أولًا)):

نقول ــ كما سبق وذكرناه ــ الله ﷻ

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

فالخلق خلقه، والملك ملكه، يفعل ربنا ﷻ ما يشاء.

((ثانيًا)):

الله ﷻ لا يفعل الأشياء إلا لحكمة عظيمة، ولا يقدِّر المقادير إلا لحكم جليلة، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها، ويكفيك أن تعرف أنَّ أفعال الله ﷻ تكون لحِكم جليلة وعظيمة، وهذه المعرفة الإجمالية فى مسألة الحكمة تكفيك.

((الرد التفصيلي)):

أنَّ إبليس وإنْ كان ملعونًا مطرودًا من رحمة الله ﷻ مبغوضًا من الله ﷻ، لكن وجوده محبوب من وجه آخر؛ لأنه سيترتب على خلق هذا اللعين أمور عظيمة، منها:

1ـ التفريق بين المؤمن الصادق وغير الصادق

فابتلى الله ﷻ به العباد؛ ليعلم الله الصادق من الكاذب، مَن الذي سيطيعه ويسير في فَلَكه، ومَن الذي سيقدم شريعة الله ﷻ على شيطانه وهواه، فإبليس بلاء واختبار للعباد؛ ليَعلم الله ﷻ الصابرين والصادقين كما قال الله ﷻ:

قال الله ﷻ:

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ {العنكبوت:3،2}

قال الله ﷻ:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ {محمد:31}

لكن هاهنا إشكال، وهو:

وقال الله ﷻ: ﴿ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾

وقال الله ﷻ: ﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾

فهل ربنا ﷻ لا يعلم؛ ليقول: حتى يعلم ؟

((الجواب)):

الله ﷻ يعلم بلا شك، فالله ﷻ يعلم: ما كان، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون؛ وهو الذى قدَّر المقادير، وهو الذى أراد ما يحدث فى هذا

الكون ﷻ، وله الإرادة الشرعية والإرادة الكونية؛ لكن هذا العلم لإقامة الحُجة على الناس؛ ليظهر علم الله وإرادته ﷻ واقعًا عمليًا، فيحاسب الناس على أعمالهم واختياراتهم، وقد سبق الجواب عن هذا الإشكال في سؤال سابق [1].

2 ـ أنه اختبار للعباد

فوجود إبليس مَحَكٌّ امتحن الله ﷻ به خلقه؛ ليتبين الخبيث من الطيب كما قال الله ﷻ: ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ {آل عمران: 179}

وقال الله ﷻ: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ {الأنبياء:35}

قال الله ﷻ:﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ {العنكبوت:3،2}

([1]) ـ انظر: (صـ 78).

فوجود إبليس اختبار للعباد.

3 ـ تثقيل ميزان المؤمنين

فبمجاهدة إبليس وبمخالفته يثقل ميزان المؤمن، مثلًا: إنسان زين له الشيطان الزنى، فهو يجاهد نفسه، ويجاهد شيطانه، ويترك ذلك لله ﷻ، أليس فى هذا تثقيلٌ للموازين؟

وعندما يرى أهل الإيمان البلاء والاضطهاد الذي يصيبهم لأجل التمسك بدينهم، يزين لهم الشيطان أن يبعدوا، وأن يتركوا هذا الطريق، فيجاهدون أنفسهم فى هذا الباب، ويخالفون عدوهم إبليس، فهذا فيه تثقيل للموازين.

4 ـ عدم الأمن من مكر الله ﷻ

فمن الممكن أن ينجرف الإنسان مع الشيطان فى أي لحظة، فيستحضر الإنسان ذلك كما قال الله ﷻ:

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْخَاسِرُونَ ﴾

فالإنسان لا يكون آمنًا من مكر الله ﷻ؛ لأن شيطانه قد يغويه في أي لحظة _ نعوذ بالله من الخذلان _.

5 ـ العبرة والعظة

حيث جعل الله ﷻ أبليس عبرة وعظة لمن خالف أمره، وتكبر عن طاعته ﷻ، وأصر على معصية الله، كما قصَّ ذلك ربنا ﷻ في كتابه: قال الله ﷻ ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ {الأعراف: 11، 12 ، 13}

فَطُرِدَ إبليس من الجنة بهذا الذنب، وفي هذا عبرة وعظة لمن خالف أمر الله ﷻ وتكبر عن طاعته ﷻ، وعندما حدث ذلك مع إبليس ازداد الخوف عند الملائكة كما ذُكر:

((أنَّ إبليس كان مع الملائكة عابدًا لله ﷻ مجتهدًا فى عبادة الله ــ وهو من الجن ــ [1]، ولكن ارتفع بعبادته لله، وصار مع الملائكة)) [2].

فَطُرِدَ من رحمة الله بهذا الذنب وباستكباره.

ــ وأما الإنسان: فيخاف على نفسه أيضًا من النزول فى دَرَك البعد عن الله ﷻ والنزول إلى غضب الله ﷻ، فإبليس لُعن وطُرد بذنب واحد، **والسعيد من وُعظ بغيره**، فكان ما حدث مع إبليس موعظة وعبره للعالمين، نسأل الله الثبات والإخلاص!

6 ـ التعبد لله ﷻ بأنواع من العبادات ما كانت لتوجد لولا وجود إبليس

ومن هذه العبادات:

([1]) ـ وفي هذا خلاف بين المفسرين، منهم من قال هو من الجن؛ لقوله تعالى:
(إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه)، ومنهم من قال هو من حي من أحياء الملائكة خلقوا من نار السموم من بين الملائكة، وقيل غير ذلك، ومن قال أنه من الملائكة أوَّل آية الكهف .
والأقرب ــ والله أعلم ــ أنه من الجن كما هو ظاهر الآية.

([2]) ـ تفسير القرطبي(1 / 287) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة، تفسير ابن كثير (1 / 97) ط (دار القلم للتراث) القاهرة.

أ ـ الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان الرجيم

كما قال الله ﷻ:

﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

فيتعبد الناس بهذه العباة عندما يقرأون القرآن [1]، وعندما يغضبون[2]، وفى الأمور التى شُرعت لها الاستعاذة [3] بالله ﷻ، ويُعْطَوْنَ الأجر على ذلك.

ب ـ و كذلك من هذه العبادات: إغاظة الشيطان

وهذه العبادة ما كانت لتكون موجودة لولا وجود الشيطان.

([1]) ـ برهان ذلك: قوله تعالى:

((فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)) {النحل:98}

([2]) ـ برهان ذلك: ما ورد في الصحيح من حديث سليمان بن الصرد رضي الله عنه قال:

((كُنْتُ جَالِسًا مع النبيِّ ﷺ ورَجُلَانِ يَسْتَبَّانِ، فأحَدُهُما احْمَرَّ وجْهُهُ، وانْتَفَخَتْ أوْدَاجُهُ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: « إنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالَهَا ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ، لو قالَ: أعُوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عنْه ما يَجِدُ » .....)) رواه البخاري (3282).

([3]) ـ **وهي كثيرة، ومنها:**

أ ـ عند تلاوة القرآن. ب ـ وعند الغضب.

ج ـ وعند دخول الخلاء. د ـ عند سماع نهيق الحمار.

هـ ـ وعند وساوس الشيطان، وغير ذلك من المواطن .....إلخ)).

سؤال: وكيف يغيظ المسلم الشيطان ؟

((الجواب)):

يغيظه بأمور، ومنها:

بطاعته لله ﷻ، وتمسُّكه بالسنة، ومجاهدته لنفسه فى الله ﷻ، ومجاهدته لعدوه، ولذلك انظر ماذا قال النبى ﷺ لتظهر إغاظة الشيطان واقعًا عمليًا فى نص الحديث النبوي كما فى سجود التلاوة عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إذا قرأ ابنُ آدمَ السَّجدةَ فسجدَ، اعتزلَ الشَّيطانُ يبكي يقولُ: يا ويلَه أُمرَ ابنُ آدمَ بالسُّجودِ فسجدَ فلَه الجنَّةُ، وأمرتُ بالسُّجودِ فأبيتُ فليَ النَّارُ)) [1]

وفي رواية: ((يا ويْلِي، أُمِرَ ابنُ آدَمَ بالسُّجُودِ فَسَجَدَ فَلَهُ الجَنَّةُ، وأُمِرْتُ بالسُّجُودِ فَعَصَيْتُ فَلِيَ النَّارُ))

فعندما تقرأ آية فيها سجدة يُستحب للمسلم أن يسجد بعد قراءة هذه الآية؛

([1]) ـ رواه مسلم (81)، وابن ماجه (871)، وابن حبان (2759).

فهذا يغيظ الشيطان، ويجعله ينعزل وينزوي من فِعل ابن آدم، وكذلك التوبة والرجوع إلى الله ﷻ، فكلما زل العبد وعصى، ثم تاب العبد وأناب إلى ربه ﷻ، فإنَّ هذا يغيظ الشيطان.

ج ـ ومعرفة مكايد الشيطان، وتحذير الناس منها

فهذه أيضًا من العبوديات التى ما كانت لتكون موجودة لولا وجود الشيطان، فيخرج العلماء والدعاة يحذرون الناس من مكايد الشيطان وحبائله وشِراكه، فَيَحذر الناس من الوقوع في مكايد الشيطان.

د ـ عبودية مجاهدة الشيطان

أن يكمل الله ﷻ لأنبيائه وأوليائه مراتب العبودية بمجاهدة الشيطان الرجيم عدو الله ﷻ ومخالفته ومراغمته فى الله ﷻ، وما كان هذا ليحدث إلا بوجود الشيطان الرجيم.

7 ـ إظهار القدرة الإلهية لله ﷻ

فَيُظْهِر ربنا ﷻ كمالَ قدرته فى خلق الأشياء من جهة التفاوت والتضاد:

فهو ﷻ خلق الملائكة "الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون "، وخلق اللهُ ﷻ إبليسَ الذى لعنه وطرده من رحمته، وخلق ربُنا ﷻ الإنسانَ المؤمن والكافر، وهذا التفاوت من أعظم آيات قدرة الله ﷻ ومشيئته وسلطانه ﷻ؛ أن خلق الأشياء بهذا التفاوت، وخلق هذه الأضداد: خلق السماء والأرض، والضياء والظلام، والجنة والنار، والبرد والحر، والطيب والخبيث ...إلخ، فكل هذه الأشياء من مخلوقات الله ﷻ.

وتأمل هذا:

تأمل وانظر كيف أن الذى خلق إبليس هو الذى خلق محمدًا ﷺ وخلق غيره من الأنبياء والصالحين ﷻ، والذى خلق مَن قال " أنا ربكم الأعلى " هو مَن خلق مَن سجد له ﷻ وقال: " سبحان ربى الأعلى ".

فتأمل قدرة الله، وانظر إلى آلاء قدرته في خلقه وتنوعهم وعجيب صُنعه.

8 ـ أن الله ﷻ يحب أن يظهر لعباده حلمَه وصبرَه وسعة رحمته

فبوجود إبليس اقتضى ذلك وجود: مَن يشرك بالله ﷻ، ومَن يضاد الله ﷻ

فى حُكمه، ومَن يجتهد فى مخالفته ﷻ ويسعى فى مساخطه _والعياذ بالله_،

بل ظهر مَن يُشبِّه ربه ﷻ بخلقه، بل ظهر مَن يسب الله ليل نهار !

ومع ذلك: يَحْلُم الله ﷻ عليهم، ويُنعم ﷻ عليهم، ويسوق لهم أنواع الطيبات، ويرزقهم ﷻ أنواع العافية، ويُمَكِّن لهم أسباب ما يُتَلذذ به من أصناف النعم، ويجيب ﷻ دعاءهم، ويكشف السوء عنهم، ويعاملهم ﷻ ببره وإحسانه وهو قادر عليهم ﷻ، ولو شاء ربنا ﷻ لانتقم منهم لكنه ﷻ رحمن كما قال النبي ﷺ: لَمَّا قَضَى اللَّهُ الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِه:

((إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي)) [1].

وتأمل صبره ﷻ على عباده

كما قال النبى ﷺ: ((ما أحَدٌ أصبرَ على أذًى يَسمَعُه مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ يَدَّعون له وَلدًا، ويُعافيهم ويَرزُقُهم)) [2].

([1]) ـ رواه البخاري (7453)، ومسلم (2751).

([2]) ـ رواه أحمد (19589)، رواه البخاري (6099)، ومسلم (2804)، والنسائي في الكبرى (7708).

فانظر لعظيم صبره وحلمه ﷻ، وتأمل أخي فى ذنوبك ومعاصيك: كم وكم تجرأتَ على الله ﷻ ؟! وكم وكم وقعت فى معصية الله ؟! ولو شاء الله ﷻ لانتقم منا، لكن الله ﷻ رحمك، وسترك، وأسدل عليك النعم الكثيرة العظيمة، فسبحان الله العظيم ! والحمد لله أنَّ إلهنا هو الله تبارك وتعالى.

9 ـ معرفة مآل الكِبْر

كما قال الله ﷻ وهو يبين ما فعله إبليس: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَان مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ {البقرة:34}

فالمتكبر لا يكون صالحًا لله ﷻ، وتكون عاقبته السوء، ولذلك كانت آفة إبليس " الكبر " فلم يصلح لله ﷻ، والكبر لا يليق إلا بالله ﷻ، ولذلك عاقب الله المتكبرين بأنهم لا ينتفعون بالآيات، قال الله ﷻ:

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ {الأعراف:146}

بل قال ربنا ﷻ فى آية أخرى هي غُصة فى حلوق المتكبرين، وقاسمة ظهور لكل متعالٍ، فقال الله ﷻ: ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ {النحل:23}

بل وبيَّن نبينا ﷺ أنَّ المتكبر لا يدخل الجنة [1] كما قال النبي ﷺ:

((لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَن كانَ في قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ)) [2]

وفي رواية ((لا يدخُلُ الجنَّةَ مَن كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ من خردلٍ من كبرٍ،

ولا يدخلُ النَّارَ من كانَ في قلبِهِ مثقالُ حبَّةٍ من إيمانٍ)) [3].

وفي الصحيحين قال النبي ﷺ:

((اختصمتِ النَّارُ والجنَّةُ، فقالت الجنَّةُ: ما لي يدخلُني الضُّعفاءُ والمساكينُ،

وقالت النَّارُ: ما لي يدخلُني الجبَّارون والمتكبِّرون، فقال اللهُ للجنَّةِ: أنت رحمتي

أصيبُ بك مَن أشاءُ، وقال للنَّارِ: أنت عذابي أصيبُ بك مَن أشاءُ)) [4]

فبخلق إبليس عرفنا وعلمنا مآل الكبر.

---

(1) ـ **والكِبْر أنواع:** منه ما يمنع دخول الجنة مطلقًا (وهو كفر أكبر)، ومنه (ما هو معصية) يستحق صاحبه الحرمان من الجنة لأول وهلة، فيعذبه الله ــ إن شاء ــ وينفذ فيه الوعيد، فيُعاقَب بأنواع الإذلال والصغار بما يشاء الله ﷻ، إلى أن يشاء ﷻ؛ حتى يزول كبره من قلبه كلية، ثم يدخله الرحمن الجنة بإسلامه وتوحيده.

(2) ـ رواه مسلم (91).

(3) ـ صحيح: رواه الترمذي (1998)، وقد ذكرنا هذه الرواية لأنها مفسرة للرواية الأولى من جهة عدم لزوم الخلود الأبدي لكل متكبر، وأن الكبر أنواع: منه ما هو كفر أكبر، ومنه دون ذلك.

(4) ـ رواه البخاري (7449)، ومسلم (2846).

ولذلك آدم ﷺ عصى ربه ﷻ فتاب، فتاب ربنا ﷻ عليه، وأما إبليس: فقد عصى ربه، فطرده ربنا، ولعنه، فبذنب واحد طُرد إبليس من رحمة الله ﷻ، وبذنب واحد أُخرج آدم ﷺ من الجنة، لكن تاب عليه ربنا ﷻ

وما الفرق بين معصية آدم ومعصية إبليس ؟

معصية آدم ﷺ كانت معصية شهوة، فتاب عليه ربنا ﷻ، لكن معصية إبليس كانت معصية كِبْر، فطرده الله ﷻ مذؤومًا مدحورًا، ولعنه،

ولذلك قال سفيان بن عُيينة رحمه الله: ((مَنْ كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ فِي شَهْوَةٍ فَأَرْجُو لَهُ التَّوْبَةَ؛ فَإِنَّ آدَمَ عَصَى مُشْتَهِيًا، فَغُفِرَ لَهُ؛ وَإِذَا كَانَتْ مَعْصِيَتُهُ فِي كِبْرٍ فَأَخْشَى عَلَى صَاحِبِهِ اللَّعْنَ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ أَبَى مُسْتَكْبِرًا فَلُعِنَ)) [1].

([1]) ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان (7867).

((السؤال التاسع))

هل القدر السابق يقتضى ترك العمل ؟

فى البداية نقول:

معرفة الإيمان بالقدر السابق لا يجوز أن يؤدى إلى ترك العمل؛ فكلٌ مُيسَّر لما خُلق له، وبيان ذلك من وجوه:

((الوجه الأول)):

هناك فرق بين (ما أراده الله بنا)، وبين (ما أراده الله منا).

فالله ﷻ أراد بنا شيئًا، وهذا الشيء الذى أراده الله هو: "**القدر المكتوب**".

وأراد الله ﷻ منا شيئًا آخر، وهو: " **التكاليف الشرعية** ".

فما أراده الله بنا " **القدر المكتوب** " أخفاه ﷻ.

وما أراده الله منا " **التكاليف الشرعية** " أظهره ﷻ.

((فلا يصح أن ننشغل بما أراده الله ﷻ بنا عما أراده الله ﷻ منا)).

لأن ما أراده الله ﷻ بنا -وهو مآلنا، سواء إلى الجنة أو إلى النار ــ والعياذ بالله ــ مكتوب عند الله، ونحن لا نعلمه، فقد أخفاه الله ﷻ عنا.

ــ وما أراده الله منا وكلفنا به من شرعه قد أظهره ﷻ لنا، فكيف لعاقل أن ينشغل بالخفي [1] عن الظاهر الجلي المكلَّف به ؟

فاحذر أخي الحبيب – رحمنا الله وإياك – من هذه الشبهة الشيطانية.

فلا تنشغل بما أراده الله بك، وانشغل بما أراده الله منك.

واعلم أنك إن أحسنت في ما أراده الله منك، فاعلم أنك قد وُفقت لكل خير وبر، وأنَّ الله ﷻ أراد بك الخير.

((الوجه الثاني)):

الاتكال على القدر وترك العمل ليس مسلك العقلاء، وبيان ذلك يظهر في أمثلة كثيرة لا حصر لها، ومنها:

---

(1) ـ ومقصد الذم هنا على مَن يجعل الخفي ــ المآل ــ حجة للتنصل والتقصير عن التكاليف الشرعية، وأما الانشغال بالمآل الذي يعين على الاجتهاد والجد في التكاليف الشرعية: فهذا ممدوح: كمن يتذكر المآل، ويخشى على نفسه، ويخاف من النار، فيحمله ذلك على تقوى الله وعدم التقصير.

فالذي يقول:

لو قدر الله لنا الطاعة لأطعنا الله، ولو شاء الله أن نصلي لصلينا ..... إلخ

يُجاب على حجته الفاسدة بأمثلة، ومنها:

المثال الأول:

هل يُعقل أن يجلس الإنسان فى بيته ويقول:

((لو قدر الله ﷻ لي الشبع سأشبع، وسيدخل الطعام فى جوفي !!))

فهل من عاقل يقول ذلك ؟! هل من إنسان يفعل ذلك ؟!

المثال الثاني:

إذا جاء لمن يحتج بالقدر لص، وأراد أن يسرق ماله، فهل سيتركه ولا يقاومه،

ويقول: ((هذا كان بقدر الله، ولو شاء الله لعاد إليَّ هذا المال !!))

فهل من عاقل يقول ذلك ؟! هل من إنسان يفعل ذلك ؟!

بل سيقاومه؛ للحفاظ على ماله، وحتى لو استولى اللص على ماله سيتخذ

كل وسيلة لاسترداد ماله، ويذهب للشرطة، وسيترك منهجه الفاسد.

المثال الثالث:

لو مرض هذا الذي يحتج بالقدر، وأصيب بأوجاع مؤلمة مهلكة في بدنه، فهل سيقول: ((هذا بقدر الله، ولو أراد الله شفائي سيشفيني !!))

فهل من عاقل يقول ذلك ؟! هل من إنسان يفعل ذلك ؟!

بل سيذهب للطبيب على الفور ولا يتلكأ، ويترك منهجه الفاسد.

المثال الرابع:

لو خرج على هذا الذي يحتج بالقدر أسدٌ، هل سيقف أمامه ويقول:

((لو قدر الله أن يفترسني هذا الأسد سيفترسني، ولو أراد الله لي النجاة سأنجو من هذا الأسد !!))

فهل من عاقل يقول ذلك ؟! هل من عاقل يفعل ذلك ؟!

المثال الخامس:

خذه ــ مَن يحتج بالقدر على ترك العمل ــ وقف به عند محطة القطار، وقل له: قف أمام القطار، ولا تتحرك، فإن قُدر لك أن تُقتل تحت العجلات

ستُقتل، وإن قُدر لك ألا تموت فلن تموت.

والأمثلة في الباب لا تُعد ولا تُحصى، وفيما ذكرناه كفاية،

واعلم أنَّ الكلام على مسألة القدر وترك العمل لأجله، هذه حُجة البليد، حُجة الإنسان المتواكل الذى لا يريد أن يُطيع ربه ﷻ، ولذلك يحتجون بشبهتهم هذه في الطاعات والتكاليف الشرعية.

ولذلك: يُذْكَرُ أَنَّ رَجُلًا سَرَقَ فَقَالَ لِعُمَرَ: سَرَقْتُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ،

فَقَالَ لَهُ: ((وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ)) [1].

((الوجه الثالث)):

أجوبة شافية ورددت في النصوص الشرعية، ومنها:

أ ـ قال الله ﷻ: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ

---

[1] ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (2 / 69) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

ب ـ عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه قال:

((..... فجاءَ سُراقةُ بنُ مالِكِ بنِ جُعْشُمٍ، فقال :يا رسولَ اللهِ، بيِّنْ لنا دِينَنا كأنَّا خُلِقْنا الآن، أرأيْتَ عُمرَتَنا هذه لعامِنا هذا أمْ للأبَدِ ؟

فقال: ((لا، بل للأبَدِ)) قال: يا رسولَ اللهِ، بيِّنْ لنا دِينَنا كأنَّا خُلِقْنا الآن، فيمَ العمَلُ اليومَ ؟ أفيما جفَّتْ به الأقلامُ، وجرَتْ به المقاديرُ، أو فيما نَستقبِلُ ؟ قال: ((لا، بل فيما جفَّتْ به الأقلامُ، وجرَتْ به المقاديرُ))،

قال: ففيمَ العمَلُ ؟ قال أبو النَّضْرِ في حديثِه: فسمِعْتُ مَن سمِعَ من أبي الزُّبَيرِ يقولُ: قال: ((اعمَلوا، فكلٌّ مُيَسَّرٌ)) [1].

وفى رواية ((وكل عامل مُيسَّر لعمله)).

قال الإمام النووي رحمه الله:

((وَفِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ النَّهْيُ عَنْ تَرْكِ الْعَمَلِ وَالِاتِّكَالِ عَلَى مَا سَبَقَ بِهِ الْقَدَرُ،

([1]) ـ رواه أحمد (14116)، مسلم (2648).

بَلْ تَجِبُ الْأَعْمَالُ وَالتَّكَالِيفُ الَّتِي وَرَدَ الشَّرْعُ بِهَا، وَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى غَيْرِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ يَسَّرَهُ لِعَمَلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ يَسَّرَهُ اللَّهُ)) [1] .

ج ـ حديث الطاعون: لما خرج عمر بن الخطاب إلى الشام، ثم علم بعد الخروج إليها أن فيها وباء، فاستشار الصحابة رضي الله عنهم ، وكان قراره أن يرجع، فقال له أبو عبيدة رضي الله عنه : ((..... قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ؟! فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ: إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأخرى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ؟ وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ ؟ قَالَ: فَجَاءَ عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ – وكانَ مُتَغَيِّبًا في بَعْضِ حَاجَتِهِ – فَقَالَ: إنَّ عِندِي في هذا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: « إذَا سَمِعْتُمْ به بأَرْضٍ فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذَا وقَعَ بأَرْضٍ وأَنْتُمْ بهَا فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه،

---

[1] ـ شرح النووي على صحيح مسلم (8 / 450)، حديث رقم (2648) ط (دار أبي حيان)

قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ »)) [1].

وجه الاستدلال:

الوباء وقع بقدر الله، ومع ذلك لم يترك عُمر رضي الله عنه العمل، وإنما رد القدر بالقدر.

((خلاصة الكلام)):

الإيمان بالتقدير السابق لا يستلزم ترك العمل والاتكال عليه، فهذا لا يجوز؛ لأن الإنسان مُيسَّر لما خُلِقَ له، والإنسان عندما يجد من نفسه: فِعل الخيرات، والإقبال على الطاعات، وكراهية الفسوق والمنكرات، فهذه دلالة وعلامة وبشارة من الله سبحانه وتعالى على أنه قد كُتب له الخير.

وكما قلنا: الله سبحانه وتعالى أراد بنا شيئًا أخفاه، وأراد منا شيئًا أظهره، فانشغل بما أُريد منك، ولا تنشغل بما أراده الله بك.

وبالله التوفيق ...

---

(1) ـ رواه مسلم (2219).

((السؤال العاشر))

لماذا [1] يعاقب الله عباده وقد قدَّر عليهم أعمالهم ؟

قد يقول قائل:

إذا كنا لا نفعل شيئًا إلا وقد أراده الله ﷻ لنا، فلماذا يعذب ربنا ﷻ العاصي والكافر ؟

وهذا السؤال من أخطر الأسئلة التي يقذفها الشيطان فى قلب المسلم في هذا الباب، والإجابة عن هذا السؤال ستكون ــ بعون الله ــ إجمالًا وتفصيلًا:

((الرد الإجمالي)):

((أولًا)):

نقول ــ كما سبق وذكرناه ــ الله ﷻ: ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

فالخلق خلقه، والملك ملكه، يفعل ربنا ﷻ ما يشاء.

([1]) ـ الله تبارك وتعالى لا يُسأل: لماذا ؟ جل في علاه ((لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون)) وإنما ذكره العبد الضعيف ــ عفا الله عنه ــ في مقام التعليم، والله من وراء القصد والسبيل.

فلابد من التسليم التام، وأن يعلم المسلم أنه عبد لله ﷻ، وربنا ﷻ:

﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾

ووالله هذه الآية رحمة ونعمة ومِنَّة من الله ﷻ، فعندما يأتيك الشيطان إذا كنت من أهل الإيمان يكفيك هذه الآية، فالخلق خلقه، والملك ملكه، يفعل ما يشاء، فإذا استحضر المسلم التسليم التام والعبودية لله ﷻ فهذا يعينه على مثل هذه السؤالات.

((ثانيًا)):

أنه ينبغي ولابد المسلم فى أبواب القدر أن يستحضر عدل الله التام وكمال أفعاله ﷻ، وأن الله لا يظلم الناس شيئًا لكمال عدله ﷻ كما قال الله ﷻ:

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {النحل:118}

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {النحل:33}

قال الله ﷻ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ {النساء:40}

قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

{يونس:44}

قال الله ﷻ: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ {الزخرف:76}

فربنا ﷻ لا يظلم الناس شيئًا.

((ثالثًا)):

الله ﷻ لا يفعل الأشياء، ولا يقدر المقادير إلا لحِكم عظيمة جليلة، علمها مَن علمها، وجهلها مَن جهلها، وهذه المعرفة الإجمالية فى مسألة القدر تكفيك.

((الرد التفصيلي)):

نقول: إنَّ هذا السؤال يتضمن سؤالين، وهما:

السؤال الأول:

((هل يسوغ الاحتجاج بالقدر على الكفر والمعاصي والتقصير ؟))

السؤال الثاني:

((إذا كان الله ﷻ أراد وقَدَّر أعمال الناس، ففيم يعذبهم وقد قدَّر عليهم أعمالهم التي يعذبون عليها ؟))

والجواب عن هذا الإشكال ــ بشِقَّيْه ــ سيكون من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: بيان ضعف هذا الاستدلال، والاحتجاج بأدلة من الكتاب والسنه تبين بطلان هذا الاستدلال.

الوجه الثانى: بيان بعض اللوازم الباطلة التى يتضمنها هذا الاحتجاج.

الوجه الثالث: مناقشة هذا الاستدلال، وسيتضمن أيضًا تضعيفًا لهذا الاستدلال.

وإليك الجواب التفصيلي عن السؤالين:

((السؤال الأول)):

((هل يسوغ الاحتجاج بالقدر على الكفر والمعاصي والتقصير؟))

اعلم أخي الحبيب ــ رحمنا الله وإياك ــ أن هذه مسألة تُسمى عند العلماء مسألة: ((**الاحتجاج بالقدر على فِعل المعصية**))

وقد حذر منها علماء أهل السنة والجماعة، واتفقوا على حرمة الاحتجاج بها، ولم يعدُّوا هذه المسألة حُجة معتبرة فى هذا الباب،

وإليك بيان ذلك:

((الوجه الأول)):

بيان ضعف هذا الاستدلال، والاحتجاج بأدلة من الكتاب والسنة تبين بطلان هذا الاستدلال:

أولًا ((بعض أدلة القرآن التي تدل على بطلان هذا الاستدلال)):

((الدليل الأول)):

أنَّ الله ﷻ لم يعتبر هذه الحجة، وأنكر الله ﷻ على قائلها، وسماه خَرْصًا

وكذبًا: قال الله ﷻ:

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ {الأنعام:148}

وجه الاستدلال من وجوه:

الوجه الأول:

المشركون احتجوا بالقدر على شركهم، وقد أنكر الله ﷻ عليهم هذا الاحتجاج، ولم يقبله منهم، ولو كان احتجاجهم مقبولًا صحيحًا ما أذاقهم الله ﷻ العذاب الأليم، فهذا إن دل فإنما يدل على بطلان هذه الحُجة.

الوجه الثاني:

أنَّ الله ﷻ ذم هذه المقالة، وأشار إلى أنها جهل وكذب وخَرْص، كما قال ﷻ: ﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾

فسماها ربنا ﷻ كذبًا غير مبني على علم صحيح معتبر، وسماها خَرْصًا: قال

﴿ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

((تَخْرُصُونَ)): تتقولون الباطل على الله ﷻ ظنًا، بغير علمٍ ولا يقين ولا برهان واضح [1] ، فأنكر الله تبارك وتعالى عليهم ذلك.

الوجه الثالث:

أنَّ مَن احتج بالقدر على الذنوب والمعاصى والكفر يلزمه ــ من قوله ــ تصحيح مسلك ومنهج الكفار الذين احتجوا بالقدر، وربنا ﷻ قد أبطل منهجهم ومسلكهم وحجتهم، ولذلك عذَّبهم، ومعلوم أنَّ تصحيح المنهج والمسلك الباطل باطل.

((الدليل الثاني)):

قال الله ﷻ:

﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ

([1]) ـ تفسير الطبري (5 / 213) طـ (دار الحديث) القاهرة.

بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ {المؤمنون:104: 108}

وجه الاستدلال:

لو كان الاحتجاج بالقدر حجة لاحتج به أهل النار عندما دخلوا فى النار؛ لأنهم كانوا يُعذبون فى النار ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾ فمع عذابهم وشدة كربهم، لم يحتجوا بالقدر على كُفرهم، ولكن قالوا: ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾

فلو كان الاحتجاج بالقدر حُجة على الذنوب والمعاصى وكان سائغًا، لاحتجوا به؛ لأنهم فى أمس الحاجة إلى مَن يخرجهم من نار جهنم، لكنهم مع التوبيخ والتقريع والعذاب الأليم لم يحتجوا بالقدر، وإنما قالوا كما ورد عنهم في آيات:

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ {الملك:10}

وقالوا كما فى آية أخرى: ﴿ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ ﴾ {إبراهيم:44}

ولو كان الاحتجاج بالقدر حُجة على الذنوب والمعاصى وكان سائغًا، لاحتج به أهل النار، لكن الذين يُعَذَّبون فى النار فقهوا ما لم يفقهه مَن يتحدث بهذه الشبهة.

((الدليل الثالث)):

قال الله ﷻ: ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ {النساء:165}.

وجه الاستدلال:

لو كان الاحتجاج بالقدر على المعاصى سائغًا لما انقطعت الحجة بإرسال الرسل؛ لأنَّ الله ﷻ قطع الحُجة بعد إرسال الرسل [1]، فلو كان الاحتجاج

([1]) ـ واعلم أن الحجة تقوم ببلوغ دعوة الرسول، ولا يلزم أن يُبعث الرسول للقوم، ودلالات ذلك كثيرة جدًا، ومنها: قول النبي ﷺ: ((الذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ، لا يَسْمَعُ بي أحَدٌ مِن هذِهِ الأُمَّةِ: يَهُودِيٌّ، ولا نَصْرانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ ولَمْ يُؤْمِنْ بالَّذِي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كانَ مِن أصْحابِ النَّارِ)) رواه أحمد (8203)، ومسلم (153). وقد فصلنا الكلام عن هذه المسألة في جزء من بحث لنا بعنوان: ((قواعد تأصيلية في التكفير وتوحيد الألوهية)) يسر الله طباعته ـــ إن شاء الله ـــ.

بالقدر حُجة ما كان لإرسال الرسل فائدة؛ لأنَّ الحُجة ما قامت بإرسال الرسل ــ على وفق مذهب الاحتجاج بالقدر والعياذ بالله ــ فانظر إلى هذا المذهب الباطل كيف يكون فيه طعن كبير فى حكمة الله ﷻ

((الدليل الرابع)):

قال الله ﷻ: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ {النحل:35}

وجه الاستدلال:

هؤلاء استدلوا بالقدر على شركهم وعلى شرك آبائهم، لكن الله ﷻ ما اعتبر هذه الحُجة، وعذب مَن مات منهم على الشرك، فلو كانت هذه حجة معتبرة لما عذبهم ربنا ﷻ.

ثانيًا ((بعض أدلة السنة التي تدل على بطلان هذا الاستدلال)):

((الدليل الأول)):

عن علي ﷺ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ » قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟

قَالَ: « اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ: فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ »

ثُمَّ قَرَأَ ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ [1].

وجه الاستدلال:

هذا الحديث هدم هذه الشبهة وأزال الإشكال؛ لأنَّ الصحابة ﷺ سألوا النبي ﷺ هذا السؤال قالوا: " أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ ؟ "

([1]) ـ رواه مسلم (2647).

قال :" اعْمَلُوا؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ "

فهذه حُجه لا قيمة لها، وليست معتبرة عند الله.

((الدليل الثاني)):

ومن آثار الصحابة رضي الله عنهم :

أ ـ ما يُروى عن عمر رضي الله عنه ، أَنَّ رَجُلًا سَرَقَ، فَقَالَ لِعُمَرَ: سَرَقْتُ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ، فَقَالَ لَهُ: ((وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ)) [1].

وجه الاستدلال:

احتج هذا الرجل بالقدر على المعائب والمعصية، ولو كانت هذه حُجة مقبولة سائغة عند أصحاب النبي ﷺ لقبلها عمر رضي الله عنه ، ولو كانت حجة مقبولة عند الصحابة رضي الله عنهم لقام بعضهم، وأنكر على عمر رضي الله عنه ، وقال له: اقبل هذه الحجة الصحيحة من السارق، فلما لم يحدث علمنا أن هذا إجماع منهم على هذا الأمر.

([1]) ـ منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (2 / 69) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان، والقصة لا تصح، ولكن نذكرها من باب الاستئناس.

((إشكال وجوابه))

يستدل ويستشكل البعض بحديث آدم وموسي عليهما السلام، وفيه:

عن أبي هريرة قال رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ :

((احتجَّ آدمُ وموسَى [1] عليهما السَّلامُ، فقالَ لَه موسَى: يا آدمُ، أنتَ أبونا

([1]) ـ اختلف العلماء ــ رحمهم الله ــ في وقت هذه المحاجة وهذا اللقاء وماهيته على أقوال:

القول الأول: أنه حدث في زمن موسى ﷺ، وقد أحيا الله له آدم معجزة له

القول الثاني: أن الله كشف قبر آدم لموسى ﷺ فتحدثا

القول الثالث: أن موسى ﷺ رآى آدم ﷺ في المنام وحدثت المحاجة، ورؤيا الأنبياء حق

القول الرابع: أن هذه اللقاء كان بعد موت موسى ﷺ وقد التقيا في البرزخ

القول الخامس: أن هذه المحاجة ستحدث في الآخرة، وإنما ذكرها بلفظ الماضي (وهي لم تحدث) لتحقق الوقوع

القول السادس: أن الله آراه روحه وحدثت المحاجة

القول السابع: أن هذه المحاجة ذُكِرت على سبيل ضرب المثل (وهذا أضعف الأقوال)

القول الثامن: أنهم التقيا بأشخاصهما على الحقيقة؛ لأن الشهداء أحياء عند ربهم، والأنبياء أولى بذلك، لأن الأنبياء أحياء في قبورهم كما ورد في الحديث.

وكل الأقوال اجتهادات، ولا توجد رواية ــ فيما أعلم ــ فيها تحديد وقت المحاجة، والأقرب في نظري: أنها محاجة على الحقيقة بأشخاصهما، وقد وقعت كما دل عليه ظاهر الحديث كما ورد في بعض الروايات ((التقى آدم وموسى)) ــ والله أعلم ــ.

وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (6 / 541) رقم (2579) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة، صحيح مسلم بشرح النووي (453/8) ط (دار أبي حيان)، وفتح الباري (596/11) ط (دار الحديث) القاهرة، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (23 / 245) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

خيَّبتَنا، وأخرجتَنا منَ الجنَّةِ بذنبِك، فقالَ لَه آدمُ: يا موسَى، اصطفاكَ اللَّهُ بِكلامِه، وخطَّ لَك التَّوراةَ بيدِه، أتلومني علَى أمرٍ قدَّرَه اللَّهُ عليَّ قبلَ أن يخلقني بأربعينَ سنةً؟ فحجَّ آدمُ موسَى، فحجَّ آدمُ موسَى، فحجَّ آدمُ موسَى -ثلاثًا-)) [1].

وجه الاستشكال:

أن آدم ﷺ حج موسى ﷺ، وقد لامه على الذنب [2]، فاحتج آدم بالقدر، فحجَّه !

وقد اختلفت طرائق الناس في هذا الحديث ومسالكهم: فمسلكان باطلان، ومسلك صحيح ــ على الاختلاف في توجيه الحديث ــ.

أ ـ مسلك رد الحديث وعدم قبوله.

ب ـ مسلك الجبرية.

ج ـ مسلك أهل السنة والجماعة.

([1]) ـ رواه البخاري (6614)، ومسلم (2652)، وابن ماجه (80) وهذا لفظ ابن ماجه.

([2]) ـ وهذا توجيه لبعض العلماء، وسيأتي ذِكره والكلام عليه إن شاء الله.

وإليك اختصار هذه المسالك:

((المسلك الأول)):

رد هذا الحديث، وتكذيبه، وعدم قبوله،

((وهذا مسلك باطل)).

وهذا مسلك طائفة من القدرية: كالجبائي [1]، وسار على دربهم في الإنكار بعضُ المعاصرين [2].

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَنْ كَذَّبَ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَمُعَانِدٌ؛ لِأَنَّهُ مُتَوَاتِرٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، وَنَاهِيكَ بِهِ عَدَالَةً وَحِفْظًا وَإِتْقَانًا، ثُمَّ هُوَ مَرْوِيٌّ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ كَمَا ذَكَرْنَا [3].

---

(1) ـ درء تعارض العقل والنقل (8 / 418) ط (طبعة على نفقة الملك فهد) ت/ د. محمد رشاد سالم، مجموع الفتاوى (8 / 304) ط (مكتبة ابن تيمية)، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (صـ 36) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة، البداية والنهاية (1 / 197) ط (دار هجر)، شرح الطحاوية، لابن أبي العز (صـ 147) ط (المكتب الإسلامي) بيروت.

(2) ـ وممن أنكره (عدنان إبراهيم) وزعم بجهله أنه كذب !! وهذا رابط المحاضرة على اليوتيوب: =https://www.youtube.com/results?search_query

(3) ـ البداية والنهاية، ابن كثير (1 / 198) ط (دار هجر).

((المسلك الثاني)):

قبول الحديث، والاحتجاج به على فِعل المعصية على وفق مذهب الجبرية ((وهذا مسلك باطل)).

فقد احتج بهذا الحديث بعض الجبرية على مذهبهم في الجبر [1].

((المسلك الثالث)):

هو مسلك قبول الحديث، والقطع بعدم جواز الاحتجاج به على فِعل المعاصي، وتوجيه الاستشكال، ((وهذا هو المسلك الصحيح)) وهو مسلك أهل السنة والجماعة.

وأصحاب هذا المسلك اختلفوا في توجيه الحديث:

فمنهم مَن تأوَّله ووجَّهَه بتأويلات ضعيفة ردًا على القدرية والجبرية، فكان مقصودهم صحيحًا، لكن توجيهاتهم وتأويلاتهم للحديث لم تكن صحية[2]

وإليك نبذة مختصرة عن بعض توجيهات أهل العلم وتأويلاتهم للحديث:

([1]) ـ مجموع الفتاوى (8 / 304) طـ (مكتبة ابن تيمية)، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل (صـ 36 :37) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة، البداية والنهاية (1 / 197) طـ (دار هجر).

([2]) ـ درء تعارض العقل والنقل (8 / 418) طـ (طبعة على نفقة الملك فهد) ت/ د. محمد رشاد سالم. شرح الطحاوية، لابن أبي العز (صـ 143) طـ (المكتب الإسلامي) بيروت.

((نبذة مختصرة عن بعض توجيهات أهل العلم وتأويلاتهم للحديث))

((التوجيه الأول)):

أن آدم ﷺ حج موسى ﷺ؛ لأنه أبوه، فحَجَّه كما يحج الرجل ابنه؛ لأنه ليس للابن أن يلوم أباه [1].

وهذا توجيه ضعيف؛ لأن الحجة يجب المصير إليها، سواء كانت مع الأب أو الابن أو السيد أو العبد [2].

((التوجيه الثاني)):

وقيل: إن آدم ﷺ حج موسى ﷺ، لأن الذنب كان في شريعة واللوم في شريعة أخرى، فلما كان الذنب واللوم في شريعتين مختلفتين حج آدم

([1]) ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (6 / 543) رقم (2579) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة، مجموع الفتاوى (8 / 304) طـ (مكتبة ابن تيمية)، شفاء العليل (صـ 37) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة، وفتح الباري (11 / 601) طـ (دار الحديث) القاهرة، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (23 / 246) طـ (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

([2]) ـ شفاء العليل (صـ 37) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

ﷺ **موسى** ﷺ [1].

وهذا توجيه ضعيف من وجهين:

((الأول)):

لأن هذه الأمة تلوم مَن قبلها من الأمم المخالفة لرسلها، وهي أمم متقدمة عليها، وإن كانت لم تجمعهم شريعة واحدة، والله ﷻ يقبل شهادتهم عليهم وإن كانوا من غير أهل شريعتهم [2].

((الثاني)):

ولأن اختلاف الشريعتين لا تأثير له في الحجة بوجه من الوجوه إلا إن ثبت جوازه في شريعة آدم ﷺ [3]، وهذا ظاهر البطلان؛ إذ لو كان يجوز في شريعة آدم لذَكَره في حجته على موسى ﷺ، فضلًا عن إثبات برهان هذه الدعوى.

([1]) ـ مجموع الفتاوى (8 / 304) ط (مكتبة ابن تيمية)، شفاء العليل (صـ 37) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة، البداية والنهاية (1 / 198) ط (دار هجر)، وفتح الباري (11 / 601) ط (دار الحديث).

([2]) ـ شفاء العليل (صـ 37) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

([3]) ـ فتح الباري (11 / 601) ط (دار الحديث) القاهرة

((التوجيه الثالث)):

قيل: إن آدم ﷺ حج موسى ﷺ؛ لأنه لامه في غير دار التكليف، ولو لامه في دار التكليف لكانت الحجة لموسى ﷺ على آدم ﷺ [1].

وهذا توجيه ضعيف من وجهين:

((الأول)):

لأن آدم لم يقُل له: لمتني في غير دار التكليف، ولو كانت الحجة في ذلك لذَكره آدم ﷺ، ولكنه قال: أتلومني على أمر قُدر عليّ قبل أن أُخلق، فلم يتعرض لذكر الدار، وإنما احتج بالقدر السابق [2].

((الثاني)):

أنَّ الله سبحانه يلوم الملومين من عباده في غير دار التكليف، فيلومهم بعد

([1]) ـ صحيح مسلم بشرح النووي (453/8) ط (دار أبي حيان)، مجموع الفتاوى (8 / 304) ط (مكتبة ابن تيمية)، شفاء العليل (صـ 37) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة، القاهرة، البداية والنهاية (1 / 198) ط (دار هجر) فتح الباري (11 / 601) ط (دار الحديث) القاهرة، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (23 / 246) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان

([2]) ـ شفاء العليل (صـ 37) ط (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

الموت، ويلومهم يوم القيامة [1].

((التوجيه الرابع)):

أن آدم ﷺ حج موسى ﷺ؛ لأنه _آدم _ تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمَن لا ذنب له، فلا يصح أن يتوجه إليه اللوم [2]،

وهذا توجيه ضعيف من وجوه:

((الأول)):

أن آدم ﷺ لم يذكر ذلك في جوابه، ولا جعله حجة على موسى ﷺ،

ولا قال له: أتلومني على ذنب قد تُبْت منه [3] ؟!

([1]) ـ شفاء العليل (صـ 37) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

([2]) ـ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (6 / 543) رقم (2579) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة، صحيح مسلم بشرح النووي (8 / 453) طـ (دار أبي حيان)، القاهرة، مجموع الفتاوى (8 / 304) طـ (مكتبة ابن تيمية)، شفاء العليل (صـ 37) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة، البداية والنهاية (1 / 198 ، 199) طـ (دار هجر)، وفتح الباري (11 / 601) طـ (دار الحديث) القاهرة، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (23 / 246) طـ (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

([3]) ـ شفاء العليل (صـ 37) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

((الثاني)):

أن موسى ﷺ، أعرف بالله وبأمره ودينه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه واجتباه ربنا بعده [1].

((الثالث)):

أن هذا التوجيه يستلزم إلغاء ما علَّق به النبي ﷺ وجه الحجة، واعتبار ما ألغاه النبي ﷺ لا يُلتفت إليه [2].

((التوجيه الخامس)):

أنَّ هذه الحجة خاصة بآدم ﷺ

وهذا القول رجحه الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال:

((وَأَمَّا قَوْلُهُ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِّرَ عَلَيَّ: فَهَذَا عِنْدِي مَخْصُوصٌ بِهِ آدَمُ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا كَانَ مِنْهُ وَمِنْ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بَعْدَ أَنْ تِيبَ عَلَى آدَمَ،

([1]) ـ شفاء العليل (صـ 37)، (صـ 43) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

([2]) ـ شفاء العليل (صـ 37) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

وَبَعْدَ أَنْ تَلَقَّى مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ تَابَ بِهَا عَلَيْهِ، فَحَسُنَ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ لِمُوسَى؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ تِيبَ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الذَّنْبِ، وَهَذَا غَيْرُ جَائِزٍ أَنْ يَقُولَهُ الْيَوْمَ أَحَدٌ إِذَا أَتَى مَا نَهَاهُ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَحْتَجُّ بِمِثْلِ هَذَا، فَيَقُولُ: أَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ قَتَلْتُ أَوْ زَنَيْتُ أَوْ سَرَقْتُ وَذَلِكَ قَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَقَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ هَذَا مَا لَا يَسُوغُ لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَهُ ....)) [1].

قلت: وهذا التوجيه فيه نظر:

لأنَّ الأصل عدم الخصوصية ــ إلا بدليل معتبر ــ.

((التوجه السادس)):

أن آدم ﷺ حج موسى ﷺ؛ لأن اللوم وقع على المصيبة التي وقعت بعد الذنب لا على الذنب، المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتج آدم ﷺ بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند

([1]) ـ التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبد البر (14 / 373 : 347) ط (دار الفاروق الحديثة) القاهرة.

المصائب لا عند المعائب [1].

وهذا من التوجيهات القوية؛ ولذلك رجحه جماعة من أهل العلم، منهم:

ابن تيمية [2] وابن القيم [3] وابن كثير [4] وابن أبي العز [5] وابن رجب [6] وغيرهم.

((التوجيه السابع)):

أن آدم ﷺ حج موسى ﷺ ؛ لأن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته: كما فعل آدم ﷺ، فيكون في ذِكر القدر إذ ذاك من التوحيد، ومعرفة أسماء الرب وصفاته [7].

([1]) ـ شفاء العليل (صـ 43) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة

([2]) ـ مجموع الفتاوى (8 / 319) طـ (مكتبة ابن تيمية).

([3]) ـ شفاء العليل (صـ 43) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

([4]) ـ البداية والنهاية (1 / 198، 199) طـ (دار هجر).

([5]) ـ شرح الطحاوية، لابن أبي العز (صـ 147) طـ (المكتب الإسلامي) بيروت.

([6]) ـ لطائف المعارف (صـ 68) طـ (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

([7]) ـ شفاء العليل (صـ 37) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة

قلت: وهذا توجيه قوي متجه

وقد ذَكَر هذا الإمام القول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ -كجواب آخر عن هذا

الحديث- حيث قال:

((وقد يتوجه جواب آخر ..... وذَكَره)) [1].

((الترجيح)):

الراجح في نظري ــ والله أعلم، إن كان صوابًا فمن الله، وإن كان خطأً فمني

ومن الشيطان، والله ورسوله بريئان ــ

المسألة لها شِقان:

((الأول)): عَلَامَ وقعت الملامة.

((الثاني)): عَلَامَ احتج آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ بالقدر.

((أما الأول)) عَلَامَ وقعت الملامة:

فالملامة كانت على المصيبة ــ التي وقعت بعد الذنب ــ.

---

[1] ـ شفاء العليل (صـ 43) طـ (المكتبة التوفيقية) القاهرة.

((برهان ذلك)):

ما سبق ذِكره من بيان ضعف الملامة على الذنب بعد التوبة [1]، ويؤيده:

روايات الحديث الدالة على ذلك، ومنها:

أ ـ فقال له موسَى:

((أنت الَّذي أشقَيْتَ النَّاسَ، وأخرجتَهم من الجنَّةِ .....)) [2].

فذكر هنا مصيبة الخروج من الجنة.

ب ـ فقال موسى:

((أنتَ الَّذي خلقَك اللَّهُ بيدِه، ونفخَ فيكَ من روحِه، وأسجدَ لَك ملائِكتَه،

وأسكنَك في جنَّتِه، ثمَّ أَهبطتَ النَّاسَ بخطيئتِكَ الأرضَ.....)) [3].

ج ـ قالَ له مُوسَى:

((أَنْتَ آدَمُ الذي أَغْوَيْتَ النَّاسَ، وَأَخْرَجْتَهُمْ مِنَ الجَنَّةِ .....)) [4].

---

(1) ـ انظر: (صـ 176)

(2) ـ رواه البخاري (4736)، ومسلم (2652).

(3) ـ رواه البخاري (6614)، ومسلم (2652).

(4) ـ رواه البخاري (6614)، ومسلم (2652).

د ـ قالَ له مُوسَى:

((يا آدَمُ، أنْتَ أبُونا، خَيَّبْتَنا، وأَخْرَجْتَنا مِنَ الجَنَّةِ .....)) [1].

فهذه الروايات تدل على أن موسى ﷺ لام آدم ﷺعلى المصيبة التي وقعت بعد الذنب.

فإن قيل: لكن ورد في هذه الروايات وغيرها ذِكر الذنب:

((... ثمَّ أَهبطتَ النَّاسَ بخطيئتِكَ الأرضَ ...)).

الجواب: إنما ورد ذِكر المعصية على لسان موسى ﷺ في بعض الروايات؛ للتنبيه على سبب المصيبة.

((أما الثاني)) عَلَامَ احتج آدم ﷺ بالقدر:

فقد احتج آدم ﷺ بالقدر على المصيبة، لأن الملامة كانت على المصيبة.

ولكن هناك مصيبتان:

الأولى: مصيبة الذنب ـــ فإنه بعد التوبة منه يكون من جنس المصائب ـــ.

---

[1] ـ رواه البخاري (6614)، ومسلم (2652).

الثانية: الخروج من الجنة.

((والسؤال)):

أى المصيبتين احتج عليها آدم ﷺ بالقدر ؟

((الجواب)):

على المصيبتين، كما دلت على ذلك مجموع الروايات.

أما الاحتجاج على مصيبة الخروج من الجنة: فبرهانها:

((احْتَجَّ آدَمُ ومُوسَى، فقالَ له مُوسَى: يا آدَمُ، أنْتَ أبُونا، خَيَّبْتَنا وأَخْرَجْتَنا مِنَ الجَنَّةِ، قالَ له آدَمُ: يا مُوسَى، اصْطَفاكَ اللَّهُ بكَلامِهِ، وخَطَّ لكَ بيَدِهِ، أتَلُومُنِي علَى أمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَنِي بأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى -ثَلاثًا-)) [1].

وجه الاستدلال:

أن الملامة كانت على المصيبة، ولذلك كان الجواب على تقديرها _المصيبة_

([1]) ـ رواه البخاري (6614)، ومسلم (2652).

عليه قبل خلقه ﷺ

أما الاحتجاج على مصيبة الذنب: فبرهانها:

رواية مسلم، وفيها: قال رسول الله ﷺ:

((احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عليهما السَّلَامُ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، قالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الذي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِن رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لكَ مَلَائِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ في جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إلى الأرْضِ، فَقالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الذي اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شيءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا، فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللَّهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ ؟ قالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا، قالَ آدَمُ: فَهلْ وَجَدْتَ فِيهَا وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى، قالَ: نَعَمْ،

قالَ :أَفَتَلُومُنِي علَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً ؟ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى)) [1].

([1]) ـ رواه مسلم (2653).

وجه الاستدلال:

قوله: ((أَفَتَلُومُنِي علَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلًا))

فلو كان المقصود هنا الخروج من الجنة لما قال: ((... أن عملت عملًا))

والاحتجاج بالقدر على الذنب بعد التوبة منه يكون من باب المصايب لا

المعايب، والاحتجاج بالقدر في المصايب لا المعايب يجوز.

قلت: وقد يتوجه حمل الرواية على أن آدم ﷺ ذكر سبب المصيبة التي لامه

عليها موسى ﷺ، والله أعلم.

وبالله التوفيق ...

الجزء الثاني من السؤال:

((إذا كان الله عز وجل أراد، وقَدَّر، وكتب المقادير وأعمال الناس، ففيما يعذبهم وقَد قَدَّر عليهم أعمالهم التي يُعذبون عليها)).

وهذا السؤال من أخطر الأسئلة الشيطانية التي تطرأ على البال، ويكفينا فيه قوله تعالى ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ فالخلق خلقه، والملك ملكه، يفعل ربنا ﷻ ما يشاء .

والجواب عن هذا السؤال من وجوه:

((الوجه الأول)):

أنَّ هذا القول فيه لوازم باطلة، ومنها:

اللازم الأول:

يلزم من هذا القول تصحيح مذهب الكفار، فمَن احتج بالقدر على الذنوب والمعاصى والكفر يلزمه تصحيح مذهب الكفار؛ لأنَّ الكفار احتجوا بالقدر كما قال الله ﷻ: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا

وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾

{الأنعام:148}

فمَن احتج بالقدر يلزمه ذلك ــ تصحيح مذهب الكفار ــ ومَن لزمه ذلك يلزمه أيضًا: أن ينسب إلى الله ﷻ الظلم؛ لأنَّ الله ﷻ لم يصحح مذهب الكفار، ولم يقبل منهم هذه الحجة عندما قالوها، فمَن احتج بهذه الحجة لزمه هذا اللازم، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

اللازم الثاني:

التناقض:

هذا الاحتجاج فيه تناقض، وهذا التناقض يدل على فساد القول، وبيان ذلك: أنَّ الذى يحتج بالقدر لو اعتدى عليه واحد من الناس (سارق، قاتل، قاطع طريق ....إلخ) وأخذ ماله، وأصابه بجراحات، واحتج عليه بالقدر، فإنه لم يقبل منه ذلك، بل سيناقض مذهبه ومسلكه، وهذا التناقض يدل على فساد هذا القول وعلى فساد الاحتجاج بالقدر في المعايب، وتناقض هذه الحجة

واضح جلي؛ لأنه ما من عقل ولا فطرة سوية سليمة تقبل بحال أن يعتدي عليها ظالم (يسرق ماله، يحرق بيته، يقتل ولده) ثم يحتج بالقدر، ويُقبل منه، فهل من الممكن أن يُعقل أن يعتدي إنسانٌ على إنسان بهذه الصورة الفجَّة المنكرة، ثم يحتج عليه بالقدر؛ فيقبل بحجته هذه ؟!

فمَن يحتج بالقدر على الذنوب والمعاصي والكفر....إلخ، إذا فُعل معه ذلك سيحاول أن يدفع عن نفسه بشتى الطرق والوسائل، ويناقض حجته، وهذا التناقض يدل على فساد هذا القول، وأنه يخالف العقل والفطرة السليمتين.

اللازم الثالث:

أنه لو كان الاحتجاج بالقدر حجة مقبولة للزم من ذلك عدم انقطاع الحجة بإرسال الرسل قال الله ﷻ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ {النساء: 165}

بل لو كان هذا الاستشكال وهذا الاحتجاج حجة فلن يكون هناك فائدة

أصلًا من إرسال الرسل؛ لأنَّ وجود الرسل ما انقطعت به الحجة؛ لأنَّ الإنسان سيفعل ما أراده وكتبه الله ﷻ ، وفي هذا طعنٌ فى حكمة الله ﷻ فهل يرسل ربنا ﷻ الرسل بغير حكمة ولا فائدة ؟! _نعوذ بالله من ذلك _ فربنا هو الحكيم العليم، فالذي يقول هذه المقالة هذا جاهل بربه تبارك وتعالى.

اللازم الرابع:

من اللوازم الباطلة التسوية بين المختلفين: فيتساوى المخطئ أو الناسي مع العامد، وهذا باطل بالشرع والفطرة وبالعقل.

فمثلًا: سيسوِّى بين مَن نسى الصلاة ومَن تعمد ترْك الصلاة، ومَن قال كلمة الكفر مختارًا ومَن قالها مكرهًا ..... إلخ.

فهناك فرق بين المخطئ والناسي والمُكْرَه، وبين المُتَعَمِّد، وهذا أمر معلوم معروف، والقول بالاحتجاج بالقدر يتضمن التسوية بينهم، وهذا قول باطل، ينكره كل عاقل كما هو معلوم.

اللازم الخامس:

التسوية بين البَر والفاجر

وهذا معلوم بطلانه بالشرع والفطرة والعقل، فالاحتجاج بالقدر سَيُسَوِّى بين الجميع: بين فرعون الذى قال: أنا ربكم الأعلى، ونبينا محمد ﷺ الذى دعا الناس إلى توحيد الله ﷻ وإلى الصلاة وإلى السجود وقول " سبحان ربى الأعلى "، يسوِّى بين مَن قتل وكفر وتجبَّر ومَن أرسله ربه ﷻ رحمة للعالمين، وهذا أمر معلوم بالفطرة لا نحتاج إلى بيانه.

مثلًا: رجل: "قاتل، متكبر ، غليظ، ظالم، سارق، جبار عنيد، كافر.... إلخ" ورجل آخر عنده " رحمة، دين، مروءة، عدل وإنصاف، حُسْن خلق ....إلخ" فهل يستوي هذا مع ذاك ؟!

فمن اللوازم الباطلة _ لهذه الحجة الواهية _ التسوية بين المختلفين.

وكيف يستوي عدو الله وولي الله ؟!

قال الله ﷻ:

﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ {القلم: 35،36}

والاحتجاج بالقدر يسوِّى بينهما ــ بين عدو الله وولي الله ــ لأن فرعون سيقول: أنا فعلتُ ما فعلتُ بقدر الله، وربي هو الذي كتب عليَّ ذلك، وأراد ذلك [1]

والطائع يقول: أنا فعلتُ ما فعلتُ بقدر الله، وربي هو الذي كتب عليَّ ذلك، وأراد ذلك [2]

فيؤدى ذلك إلى التسوية بين مختلفين، بين عدو الله المحارب لدين الله، وولي الله الذي عاش عمره دفاعًا عن دين الله وشريعته.

اللازم السادس:

التفريق بين الأمر الأخروى والأمر الدنيوى

لأن الذين يحتجون بالقدر إنما يحتجون بالقدر على الأمور الأخروية التى فيها

([1]) ـ المقصود بالإرادة هنا: الإرادة الكونية لا الشرعية.

([2]) ـ والمقصود هنا: الإرادة الكونية والشرعية (في الجملة).

الطاعة والتكاليف الشرعية التي شرعها الله ﷻ، أما فى أمور الدنيا: فإنهم لا يحتجون بالقدر، إذن فهو جبري فى أمر المعصية.

اللازم السابع:

مَن يتفوه بهذه الحجة الساقطة فقد شَبَّه نفسه بالمجانين والصبيان

الذى يقول: أنا إن فعلتُ ما قدره الله ﷻ فلِمَ يعذبني ؟.... إلخ.

فهذا القول كأنه فيه رفع للتكليف عن قائله؛ لأنه غير مُؤاخَذ على فِعله؛ لأن الله ﷻ هو الذي قدَّره عليه ــ على وفق منهجهم السقيم ــ فقد شبه نفسه بغير المكلفين: كالمجانين والصبيان، لكن هذا الذى قال ذلك لو عُومِلَ فى أمور دنياه معاملة الصبيان والمجانين لم يرضَ بهذه المعاملة، تخيل لو قلنا له: ما دمتَ تقول هذه المقولة فسنأخذ أموالك، ونجعل هناك وليًا عليك، فلا تنفق شيئًا من مالك دون هذا الولي، فهل يقبل هذا ؟

لا، لكنه فى أمور الطاعة جعل نفسه غير مكلف كالمجنون والصبى.

اللازم الثامن:

لو قبلنا هذا الاحتجاج لما كانت هناك حاجة للاستغفار ولا التوبة ولا الدعاء ولا الجهاد ولا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذا لازم باطل، وإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

اللازم التاسع:

تعطيل المصالح وعموم الفوضى

لو كان القدر حجة فى المعائب والذنوب لتعطلت مصالح الناس، ولعمَّت الفوضى، وما كان هناك داعٍ للحدود ولا الجزاءات ولا التعذيرات ولا العقوبة للمسيء؛ لأنَّ الكل سيحتجُّ بالقدر، ولما احتجنا وَضْع المحاكم ولا العقوبات للظلمة وقطاع الطريق، ولا احتجنا لمناصب القضاء؛ لأنَّ كل ما وقع إنما وقع بقدر الله ﷻ، وهذا لا يقبله شرع ولا عقل ولا فطرة.

الوجه الثالث:

مناقشة هذا الاستدلال، وسيتضمن أيضًا تضعيفًا لهذا الاستدلال من وجوه نظرية.

الوجه الأول:

سؤال: مَن الذي يسأل هذا السؤال ؟

الجواب: هذا السؤال هو للبطالين والكسالى والمتجرئين على المعاصى أو الجهلة؛ بدليل أنهم يذكرون هذا الدليل فى المعاصي فقط، ولا يذكرونه فى الطاعة، مع أن الله ﷻ قدَّر عليهم الطاعة والمعصية، ويثيبهم ربنا تبارك وتعالى عليها، فمقتضى الإنصاف أن يذكر تقدير المعصية والعذاب، والطاعة والأجر والثواب.

ولكنهم يذكرونه في المعصية لتبرير التقصير

الوجه الثاني:

هم لا يحتجون بالقدر فى دنياهم، ولا يستشكلون ذلك عند شهواتهم: كالأكل

والشرب ومتاع الدنيا، لكن يقولون ذلك عند الطاعة فقط، ولا يقولونه عند الإساءة إليهم !!

فمثلاً: لو وَجَدَ واحدٌ من هؤلاء الذين يحتجون بالقدر رجلًا يسرق بيته فى الليل، ويهتك عرضه، فهل يتركه ولا يعاقبه بحجة أنه فعل ما فعل بقدر الله، فعلامَ نعاقبه ؟!

فتأمل: يريدون الحجة على الله ﷻ وهم لا يقبلونها !!

فلا يقبلونها فى الإساءة إليهم والمحافظة على أرزاقهم، وهذا يدل على جهلهم وجهالتهم، وأنهم يبحثون عن مُسوِّغ لمعاصيهم إلا مَن رحم ربنا ﷻ.

الوجه الثالث:

سؤال: هل ربنا ﷻ سيحاسبك على اختيارك وأفعالك، أو يحاسبك على ما كتبه عليك، وقدَّره لك، وأراده لك ؟

الجواب: يحاسبك ربنا ﷻ على اختيارك وأفعالك؛ إذ المقدور أنواع:

فهناك مقدور فيه تكليف واختيار، وهناك مقدور ليس فيه تكليف ولا اختيار وهذا لا تُحاسب عليه، فلا يحاسبك الله ﷻ على أبيك أو أمك أو أخيك أو أختك [1] لأنك ما اخترت ذلك؛ فالإنسان مثلًا وُلد فى عائلة كافرة، فلا يحاسبه ربنا ﷻ على ذلك، ولا يحاسبك الله ﷻ على شكلك ولا لونك ولا طولك؛ لأنَّ هذه أشياء لا اختيار لك فيها.

إنما يحاسبك الله ﷻ على محل الاختيار ومحل التكليف، ولذلك الصبى والمجنون غير مكلفين؛ لعدم أهلية الاختيار، فالذي يحتج بهذه الحجة نقول له: إنما حاسبك الله ﷻ على اختيارك وفِعلك الذى كتبه وأراده لك [2].

وهذا أمر يعلمه الجميع، فالذي يفعل الطاعة يعلم أنه فعلها باختياره وإرادته، والإنسان ينظر ويفكر ويعرف ذلك من نفسه جيدًا.

([1]) ـ والمقصود هنا: أن الإنسان لا يُسأل عن أبيه وأمه ـــ مثلًا ـــ لأنه لا اختيار له في ذلك، وليس المقصود أنه لا يُسأل عن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر إذا رأى ذلك ـــ بضوابطه ـــ ورِضاه بالسوء ومشاركته فيه معهم ..... إلخ.

([2]) ـ وسيأتي الجواب عن جزئية: (إذا كان الله أراد للعباد أفعالهم فعلامَ يعذبهم ؟) في الوجه الرابع.

الوجه الرابع:

أن هذا الاعتقاد _ أن الله عَلِمَ وأراد وكتب وخلق أفعال العباد وأعمالهم – من لوازم ربوبية الله ﷻ، **ألَّا يكون في ملكه إلا ما أراده الله** ﷻ.

وإلا فلنسأل صاحب هذه الحجة _ إذا كان الله أراد للعباد أفعالهم التي فعلوها فعلامَ يعذبهم _ نسأله:

ما اعتقادك البديل يا مَن تستشكل هذا الاستشكال ؟

يا مَن يقول: لو قدَّر الله ﷻ عليَّ كذا من الذنوب، وأراد أن يكون هذا الأمر موجودًا، فعلامَ يعذبني، نسأله: وما القول البديل والمعتقد البديل عندك ؟

((الجواب)):

الاعتقاد البديل أن تقول بقول القدرية: أن الله ﷻ لم يخلق أفعال العباد، ولم يشأ ربنا ﷻ ما يفعله العباد.

وهذا من أقبح وأفحش ما يكون !

((برهان ذلك)):

أ ـ أن قائلة سيعتقد أنَّ هناك أشياء في ملك الله ﷻ قد حدثت والله ما كان يريدها [1]، وهذا طعن في ربوبية الله ﷻ، إذ كيف يكون في مُلْك الله ﷻ ما لا يريده الله ﷻ !!

ب ـ وأن قائل هذا القول سيجعل مشيئة العبد فوق مشيئة الرَّب ﷻ فيجعل مشيئة العبد الفقير المخلوق نافذة على مشيئة الخالق ــتعالى الله عن ذلكــ وهذا تكذيب للقرآن حيث قال الله ﷻ:

﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ {التكوير:29}

ج ـ أنَّ قائل هذا القول سيجعل للكون خالقًا، وهو الله ﷻ، وسيجعل أعدادًا من الناس ــ لا يعلمهم إلا الله ــ يخلقون أفعالهم، وسيجعل للكون الكثير والكثير من الخالقين ــ لأعمالهم وأفعالهم ــ غير الله، وهو القائل:

قال الله ﷻ: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ {الصافات:96}

([1]) ـ المقصود هنا: ما كان يريدها ((كونًا)).

فانظر لفحش هذا القول الباطل المنكر الذي لا يقول به عاقل ذو فطرة سليمة، فأيهما يقدِّم المسلم ؟

الاستسلام لله الذى دل عليه الدليل، أو الدخول فى خضم الشرك، وأنَّ يثبت لهذا الكون خالقين غير الله تبارك وتعالى ؟

تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

الوجه الخامس:

مَن يقول:

(إذا كان الله قدَّر الأشياء وأرادها، فعلامَ يعذبني وقد فعلتها بقَدَره)

نقول لقائل هذا القول:

((واعلم كما أنك فعلت الفجور، وتركت الفرائض، وارتكبت المنكرات...إلخ، بقدر الله، فكذلك سيعذبك الله في النار بقدره)).

الوجه السادس:

أنَّ هذا الإشكال هو ابتلاء من الله ﷻ، وفيه اختبار من الله ﷻ للعبد حتى

يرى الله ﷻ من المسلم الذى يستسلم لله ﷻ ويؤمن بربه ﷻ، وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون، وأن الله ليس بظلام للعبيد، ومَن الجاهل المتجرئ على ربه ﷻ الذي يخوض فيما لا عِلم له به، ولا يسير خلف الدليل وخلف جانب العبودية لله ﷻ.

وقد يكون هذا السر مجهولًا لا تدركه العقول غاية الإدراك فى هذا الوقت؛ من باب البلاء والاختبار من الله ﷻ، لكن سيُكشف ويُظهر يوم القيامة، ويستوعب الإنسان هذه المسألة، وحينها يفرح مَن استسلم لربه ﷻ فى الدنيا، ويحزن المتجرئ على ربه ﷻ، لأنَّ هذه العقول عقول قاصرة، والقدر سر من أسرار الله ﷻ، والمسلم يكفيه الاستسلام لله ﷻ على وفق عقيدة أهل السنه والجماعة.

أما خلاف ذلك: فظلمات بعضها فوق بعض:

ـــ إما اعتقاد القدرية الذين يثبتون خَالِقِين غير الله ﷻ فى هذا الكون، وأن مشيئة العبد فوق مشيئة الرب، وأنه يكون في ملك الله ما لم يُرِده ـــ كونًا ـــ

أو اعتقاد الجبرية الذين يقولون أن الله جبر الناس على ما يفعلونه، وهذا فيه نسبة الظلم لله ﷻ، والله سبحانه وتعالى مُنزَّه عن ذلك.

الوجه السابع:

نقول: هذا الاعتقاد هو الاعتقاد السليم: أن نؤمن أن الله قدَّر أشياء، وأراد أشياء، وما قدَّره وأراده [1] سيكون، لكنه ﷻ خلق لك السمع والأبصار والأفئدة، وخلق لك فعلًا واختيارًا، وسيحاسبك على هذا الفعل وهذا الاختيار ﷻ

هذا هو الاعتقاد السليم الذى تدل عليه الأدلة، وسار عليه الصحابة رضي الله عنهم وعلماء أهل السنة رحمهم الله.

والله أعلم ...

وبالله التوفيق ...

([1]) ـ والمقصود ما أراده كونًا؛ لأن هناك مَن يخالف الإرادة الشرعية.

خطأ فادح في الجواب عن هذا الإشكال !

وهنا ننوِّه على خطأ كبير يقع فيه الكثير من الطلبة والمشايخ، وربما وقع فيه بعض أهل السنة والجماعة ـ بغير قصد ـ عند إجابتهم على هذا الاستشكال فى باب القدر، فربما أتَوْا بإجابة ظاهرها الإقناع، ولكن باطنها الاعتزال دون قصد، ومضمون هذا الجواب:

كون الله قدَّر المقادير على العباد – ومنها الذنوب والمعاصي والكفر – فكيف يعذبهم على ما قدَّره عليهم ؟

قالوا:

الإجابة عن هذا السؤال: أشبه بمدرس عنده تلاميذ، وهو يعلم مستوياتهم، فيقيِّمهم على ما يلي: (منصور) تلميذ بليد، لا يتعب ولا يكد، ولا يذاكر، ولن ينجح فى هذا العام، وستكون درجته واحدًا من عشرة مثلًا، وأما هذا التلميذ (محمد): فمجتهد ومُجِد، وسينجح، وستكون درجته هذا العام عشرة من عشرة، امتياز.

ووُضعت الاختبارات، وبالفعل وُضعت الامتحانات، فإذا بالطالب البليد يأتي بدرجة واحد من عشرة، أما الطالب المجتهد: فيأتي بدرجة عشرة من عشرة، كما عَلِمَ المدرس.

ثم قالوا: هل هذا المدرس أجبر التلميذ البليد أن يأتي بهذه الدرجة السيئة ؟ وهل للتلميذ أن يقول أن المدرس قدَّر لي ذلك وكتبه قبل الاختبار، وهو السبب فيما أنا فيه ؟

الجواب: لا، بلا شك.

وكذلك ربنا ﷻ وله المثل الأعلى: كونه كتب المقادير، وعَلِمَهَا، وكتب ما يفعله العباد، فهذا لا جبر فيه.

ومن الأمثلة الشائعة في الجواب عن هذا السؤال:

أمٌّ عندها طفلان " أحمد ومحمد "، وقد أعدت لهما الطعام، وكلاهما ــ أي: الطفلين ــ كانا نائمين، وتركت الأم لهما طعامًا عبارة عن " أَرُز ومعكرونة "

وخرجت الأم من البيت، وقالت: محمد عندما يقوم سيأكل المعكرونة ويترك الأَرُز، وأحمد سيأكل الأَرُز وسيترك المعكرونة.

وبالفعل قام الطفلان، وفعلا ما قالته الأم.

هذه من أشهر الأمثلة في الجواب على إشكالية الاحتجاج بالقَدَر.

وهذه الأمثلة: وإن كان ظاهرها الإقناع، لكن باطنها قول القدرية والاعتزال؛ لأنَّ هذه الأمثلة أغفلت إرادة الله ﷻ لفِعل العبد، وإنما ذكرت الأمثلةُ العلمَ فقط، والكلام على العلم قال به متأخرو القدرية ــ بخلاف القدرية الأوائل الذين كانوا ينفون الخلق والعلم، أما متأخرو القدرية: فأثبتوا لله العلم، ونفوا الخلق، وقالوا أن العباد هم الذين يخلقون أفعالهم [1] ــ فهذا المثال مثال باطل ناقص، والنقص فيه فى مسألة الإرادة، ولذلك نقول:

ربنا ﷻ ما كَتَبَ فقط، وما عَلِمَ فقط، وإنما مع ذلك خلق وأراد، فالذي كفر وأشرك أراد الله ﷻ له ذلك كونًا؛ لحكمة بالغة عظيمة عند الله ﷻ ولعدله

([1]) ـ وقد سبق ذِكر أقسامهم الثلاثة من قبلُ باختصار، انظر: (صـ 26)

ﷻ؛ لأن هذا العبد يستحق ذلك.

فهذه الأمثلة ينبغي أن تُعَدَّل وتُضْبط بضوابط أهل السنة والجماعة، ولا يغرنك كثرة المتفوهين بها وشهرتهم !

وبالله التوفيق ...

((بعض آثار السلف _ رحمهم الله _ في الرد على هذا الإشكال))

جواب سالم بن عبد الله بن عمر رَحِمَهُ اللَّهُ:

أ ـ عَنْ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَسَأَلَهُ رَجُلٌ،

فَقَالَ: أَيَزْنِي الرَّجُلُ بِقَدَرٍ ؟ فَقَالَ: نَعَمْ،

قَالَ: أَشَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ: نَعَمْ،

قَالَ: فَيُعَذِّبُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَتَبَهُ عَلَيْهِ ؟ قَالَ: فَحَصَبَهُ [1].

جواب إِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

ب ـ عن حبيب بن الشَّهِيدِ، قَالَ :سَمِعْتُ إِيَاسَ بْنَ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ:

مَا كَلَّمْتُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ بِعَقْلِي كُلِّهِ إِلَّا الْقَدَرِيَّةَ، فَإِنِّي قُلْتُ لَهُمْ:

مَا الظُّلْمُ فِيكُمْ ؟

فَقَالُوا :أَنْ يَأْخُذَ الْإِنْسَانُ مَا لَيْسَ لَهُ،

فَقُلْتُ لَهُمْ :فَإِنَّ لِلَّهِ كُلَّ شَيْءٍ [2].

([1]) ـ شرح أصول الاعتقاد (1270).

([2]) ـ شرح أصول الاعتقاد (1280)، الشريعة (478).

جواب أبي إِسْحَاق الإسفراييني رَحِمَهُ اللَّهُ:

وهي مناظرة مشهورة بَين الْأُسْتَاذ أبي إِسْحَاق الإسفرايني وَالْقَاضِي عبد الْجَبَّار المعتزلي، وفيها:

قَالَ عبد الْجَبَّار فِي ابْتِدَاء جُلُوسه للمناظرة: **سُبْحَانَ مَن تنزه عَن الْفَحْشَاء،**

فَقَالَ الْأُسْتَاذ مجيبًا: **((سُبْحَانَ مَن لَا يَقع فِي ملكه إِلَّا مَا يَشَاء))**

فَقَالَ عبد الْجَبَّار: **((أفيشاء رَبنَا أَن يُعْصى ؟))**

فَقَالَ الْأُسْتَاذ: **((أيُعصى رَبنَا قهرًا ؟))**

فَقَالَ عبد الْجَبَّار: **((أَفَرَأَيْت إِن مَنَعَنِي الْهُدى، وَقضى عَليّ بالرَّدى، أحسن إِلَيّ أم أسا ؟))**

فَقَالَ الْأُسْتَاذ: **((إِن كَانَ مَنعك مَا هُوَ لَك فقد أسا، وَإِن مَنعك مَا هُوَ لَهُ فَيخْتَص برحمته مَن يشا))** فَانْقَطع عبد الْجَبَّار [1].

([1]) ـ طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي (2 / 512) رقم (358) ط (دار الكتب العلمية) بيروت ـ لبنان.

بعض المأثورات في نكاية مَن كذَّب بالقدر أو خالف الحق وخزيهم وإفحامهم:

أ ـ قَالَ حَمَّادُ بْنُ زَيْدٍ قال:

((جَعَلَ رَجُلٌ لِرَجُلٍ جُعْلًا عَلَى أَنْ يَعْبُرَ نَهَرًا، قَالَ: فَعَبَرَ حَتَّى إِذَا قَرُبَ مِنَ الشَّطِّ، فَقَالَ: عَبَرْتُ وَاللَّهِ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ :قُلْ مَا شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: شَاءَ أَوْ لَمْ يَشَأْ، قَالَ: فَأَخَذَتْهُ الْأَرْضُ)) [1].

وفي رواية: ((فَغَاصَ وَلَمْ يَخْرُجْ)) [2].

ب ـ عَنْ مَرْحُومٍ الْعَطَّارِ، قَالَ:

((أَتَانِي رَجُلٌ، فَقَالَ :يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، إِنَّ أَخِيَ هَذَا أَرَادَ شِرَاءَ جَارِيَةٍ مِنْ فُلَانٍ، وَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَعِينَ بِرَأْيِكَ، فَقُمْ مَعَنَا إِلَيْهِ، فَانْطَلَقْنَا إِلَيْهِ، فَإِذَا رَجُلٌ مُثْرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ قُلْنَا: جَارِيَتُكَ فُلَانَةُ أَرَادَ هَذَا الرَّجُلُ يَعْتَرِضُهَا، قَالَ: نَعَمْ قَدْ

([1]) ـ رواه اللالكائي فى (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة) (4 / 492) رقم (1339) ط (المكتبة الإسلامية) القاهرة.

([2]) ـ الإبانة، ابن بطة (3 / 60) رقم (1507) وسنده صحيح، ط (دار الحديث) القاهرة.

حَضَرَ الْغَدَاءُ، فَتَغَدُّوا، وَأُخْرِجُهَا إِلَيْكُمْ، فَقُلْنَا: هَاتِ غَدَاءَكَ، فَتَغَدَّيْنَا، ثُمَّ قَالَ: لَا يَسْقِيكُمُ الْمَاءَ إِلَّا مَنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَعْتَرِضُوهُ، ادْعُوا فُلَانَةَ، قَالَ: فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ وَضِيئَةٌ، فَقَالَ لَهَا: اسْقِينِي، فَجَاءَتْ بِقَدَحِ زُجَاجٍ، فَصَبَّتْ لَهُ مَاءً، فَوَضَعَهُ عَلَى رَاحَتِهِ، ثُمَّ رَفَعَهُ إِلَى فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، يَزْعُمُ نَاسٌ أَنِّي لَا أَسْتَطِيعُ أَشْرَبُ هَذَا ؟ وَتَرَى هَاهُنَا حَائِلًا، ثُمَّ قَالَ: فَأَنَا لَا أَشْرَبُهُ، فَتَرَى هَاهُنَا مُكْرِهًا ؟

ثُمَّ قَالَ: هِيَ حُرَّةٌ إِنْ لَمْ أَشْرَبْهُ، فَضَرَبَتِ الْقَدَحَ بِرُدْنِ قَمِيصِهَا، فَوَقَعَ الْقَدَحُ، وَانْكَسَرَ، وَاهْرَاقَ الْمَاءُ، فَخَرَجَتْ مَعَنَا مُقَنَّعَةً، فَكَانَتْ تُدْعَى: مَوْلَاةُ السُّنَّةِ))[1].

ج ـ قَالَ: عَبْدُ الْمَجِيدِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي رَوَّادٍ:

((كُنَّا مَعَ إِنْسَانٍ يَتَكَلَّمُ فِي الْقَدَرِ، فَأَخَذَ بَيْضَةً، وَكُنَّا نَأْكُلُ بِيضًا وَخُبْزًا، فَقَالَ: هَذِهِ الْبَيْضَةُ إِنْ شِئْتُ أَكَلْتُهَا وَإِنْ شِئْتُ لَمْ آكُلْهَا، قَالَ: فَقُلْنَا لَهُ:

([1]) ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة (4 / 492) رقم (1340) ط (المكتبة الإسلامية) القاهرة.

فَشَأْ، قَالَ: فَأَنَا أَشَاءُ، قَالَ: فَأَدْخَلَهَا فِي فِيهِ، فَوَثَبَ إِلَيْهِ رَجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِنَا جَلْدَانِ فَفَكَّا لَحْيَيْهِ حَتَّى رَمَاهَا، فَقَالَا: زَعَمْتَ أَنَّكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ لَوْ شِئْتَ لَأَكَلْتَهَا، وَلَكِنَّ الْمَشِيئَةَ إِلَى اللَّهِ شَاءَ أَلَّا تَأْكُلَهَا، فَطَرَحْتَهَا)) [1].

وانظر لهذا الرد المفحِم من أعرابي لقَدَري ينفي خلق الله لأفعال العباد:

د ـ رُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا جَاءَ عَمْرَو بْنَ عُبَيْدٍ، فَقَالَ لَهُ:

((إِنَّ نَاقَتِي سُرِقَتْ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرُدَّهَا عَلَيَّ، فَقَالَ:

«اللَّهُمَّ إِنَّ نَاقَةَ هَذَا الْفَقِيرِ سُرِقَتْ، وَلَمْ تُرِدْ سَرِقَتَهَا، اللَّهُمَّ ارْدُدْهَا عَلَيْهِ»

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: يَا شَيْخُ، الْآنَ ذَهَبَتْ نَاقَتِي وَأَيِسْتُ مِنْهَا.

قَالَ: وَكَيْفَ ؟

قَالَ: لِأَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَلَّا تُسْرَقَ فَسُرِقَتْ، لَمْ آمَنْ أَنْ يُرِيدَ رُجُوعَهَا فَلَا تَرْجِعَ، وَنَهَضَ مِنْ عِنْدِهِ مُنْصَرِفًا)) [2].

([1]) ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة (4 / 492) رقم (1341) ط (المكتبة الإسلامية) القاهرة.

([2]) ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة (4 / 508) رقم (1376) ط (المكتبة الإسلامية) القاهرة.

((الخاتمة))

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، أما بعد:

هذا ما تيسر لنا جمعه، فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وأسأل الله الكريم أن يجعلني ممن وُفِّقَ إلى مراده القويم، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، ويقبله من عبده المسكين، وينفع به المسلمين؛ إنه جواد كريم.

وأسأله أن يجمعنا على ما يرضيه، وأن يُمَسِّكَنا جميعًا بحبله المتين وصراطه المستقيم.

وأسأله سبحانه أن يرفع عن بلادنا وبلاد المسلمين: الوباء، والبلاء، والغُمة؛ وأن يتوب علينا لنتوب، ويهدينا إلى مراضيه، ويعتق رقابنا من النار؛ إنه بالإجابة كفيل، وهو على كل شيء قدير، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وصلِ اللهم وسلم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

وبالله التوفيق ...

وكتبه : أبو عبد الله السكندري المصري

محمد أنور محمد مرسال

الاثنين / الثالث من شهر رجب (1442 هـ)

الموافق: 15 / فبراير/ 2021 م

فهرس الموضوعات

إهداء ..... صـ 3

مقدمة المصنف..... صـ 4

تمهيد (أصول مهمة لا بد أن يتحلى بها المسلم في باب القدر)..... صـ 9

الأصل الأول: (الله لا يُسأل عما يفعل)..... صـ 9

الأصل الثاني: (التوقيف)..... صـ 10

الأصل الثالث: (التسليم التام)..... صـ 11

الأصل الرابع: (الله لا يظلم الناس شيئًا لكمال عدله)..... صـ 11

الأصل الخامس: (الله لا يفعل الأشياء إلا لحِكَم عظيمة)..... صـ 12

الأصل السادس: (استحضار العبودية لله)..... صـ 13

الأصل السابع: (الالتزام بفهم الصحابة والسلف)..... صـ 13

السؤال الأول: (هل يُنسب الشر لله ؟)..... صـ 15

أقسام الشر (شر محض ـ وشر نسبي)..... صـ 17

القدرية ينقسمون إلى ثلاث طوائف..... صـ 26

أقوال الصحابة والسلف في حُكم القدرية الغلاة (هامش)..... صـ 27

مسالك أهل العلم في حديث (والشر ليس إليك).....صـ 30

الفرق بين فعل الله ومفعولات الله .....صـ 33

الترجيح الأَولى بالصواب في التوجيهات.....صـ 36

هل لنا أن نقول أن الله ﷻ خلق الشر ؟ .....صـ 37

ضوابط في نسبة الشر إلى لله من جهة الخلق..... صـ 38

هل يصح أن نقول: أراد الله ﷻ الشر الموجود في الدنيا ؟.....صـ 41

السؤال الثاني: (ما الحكمة من تقدير المعاصي والذنوب؟).....صـ 42

الحكمة من تقدير المعاصي والذنوب (وفيه ذِكر ست عشرةحكمة) .....

.....صـ 43

السؤال الثالث: (ما الحكمة من تقدير البلاء؟).....صـ 56

الحكمة من تقدير البلاء (وفيه ذِكر ثماني عشرة حكمة).....صـ 58

الخلاف في تكفير الذنوب بالبلاء: يكون للصغائر أو للصغائر والكبائر؟

(هامش)..... صـ 65

الخلاف في المصائب: هل هي مكفرات فقط أو مكفرات ومثيبات

(هامش)..... صـ 66

إذا كان البلاء لتكفير السيئات فما الحكمة من بلاء الأنبياء صلوات ربي

وسلامه عليهم ؟ (هامش) .....صـ 67

إشكال وجوابه..... صـ 75

السؤال الرابع: (كيف يكون في مُلْك الله ﷻ ما لا يحبه ؟)..... صـ 78

أقسام الإرادة (الشرعية ـ والكونية) وضابطهما.....صـ 85

نبذة في التفريق بين الإرادة الشرعية والكونية.....صـ 86

تطبيقات وصور وأمثلة على الشرعي والكوني بأنواعهما.....صـ 90

بعض الردود المفحمة في الرد على منكري الإرادة الكونية.....صـ 100

السؤال الخامس: (هل الإنسان مُسيَّر أو مُخيَّر؟) .....صـ 102

بيان أوجه الإجابة الصحيحة والأجوبة الخاطئة عن السؤال.....صـ 108

هل لفظا (مُسيَّر ومُخيَّر) وردا في النصوص الشرعية ؟..... صـ 109

السؤال السادس: (هل الإيمان بالقدر يتعارض مع كون الإنسان صاحب مشيئة ؟) ..... صـ 110

إشكال وجوابه .....صـ 113

خلاصة الكلام في السؤال.....صـ 117

السؤال السابع: (ما الحكمة من تقدير الكفر ووجوده ؟).....صـ 118

الحكمة من وجود الكفر (وفيه ذكر عشر حِكَم).....صـ 120

الخلاف في اسم "الصبور" هل يُثبت لله ﷻ أو لا ؟ (هامش).....صـ 123

موالاة المشركين تنقسم إلي قسمين: منها ما هو كفر أكبر، ومنها معصية (هامش) .....صـ 130

السؤال الثامن: (ما الحكمة من وجود إبليس وهو يضل الناس ؟)

.....صـ 134

الحكمة من وجود إبليس (وفيه ذِكر تسع حِكَم).....صـ 135

السؤال التاسع: (هل القدر السابق يقتضي ترك العمل ؟).....صـ 149

أمثلة تدل على أن ترك العمل لأجل القدر السابق ليس مسلك العقلاء..

.....صـ 151

خلاصة الكلام في السؤال.....صـ 156

السؤال العاشر: (لماذا يعذب الله العباد وقد قدر عليهم أعمالهم التي

عملوها ؟).....صـ 157

الرد الإجمالي على هذا السؤال الشيطاني ..... صـ 157

بيان أن هذا السؤال يتضمن سؤالين.....صـ 159

هل يسوغ الاحتجاج بالقدر على المعاصي والكفر والتقصير؟.....صـ 161

بيان بطلان الاحتجاج بالقدر على المعاصي من الكتاب والسنة... صـ 161

إشكال احتجاج آدم وموسى صلوات ربي وسلامه عليهم.....صـ 169

الخلاف في وقت هذه المحاجاة (هامش) .....صـ 169

وجه الاستشكال في حديث آدم وموسى، ومسالك الناس فيه.... صـ 170

نبذة عن توجيهات العلماء لحديث آدم وموسى (وفيه ذِكر سبع توجيهات،

مع بيان قوتها وضعفها).....صـ 173

الترجيح بين هذه التوجيهات ..... صـ 180

هل الملامة وقعت على المصيبة أو الذنب ؟..... صـ 180

هل احتجاج آدم ﷺ بالقدر كان على مصيبة الذنب، أو على مصيبة

الخروج من الجنة ؟..... صـ 182

إذا كان الله ﷻ أراد وقَدَّر وكتب المقادير وأعمال الناس، ففيمَ يعذبهم وقَد

قَدَّر عليهم أعمالهم التي يُعذبون عليها ؟..... صـ 186

لوازم تدل على بطلان هذا السؤال الشيطاني (وفيه ذِكر تسع لوازم)..... .....صـ 186

مناقشة هذا السؤال الشيطاني وتضعيفه من سبعة وجوه .....صـ 194

ما الاعتقاد البديل ؟..... صـ 197

خطأ فادح في الجواب عن هذا السؤال، جواب مشهور ظاهره الإقناع

وباطنه مذهب الاعتزال..... صـ 202

بعض آثار السلف في الرد على هذا الإشكال..... صـ 206

بعض المأثورات المرويَّة في نكاية مَن كذَّب بالقدر أو خالف مذهب أهل الحق وخزيهم وإفحامهم..... صـ 208

الخاتمة .....صـ 211

فهرس الموضوعات..... صـ 213